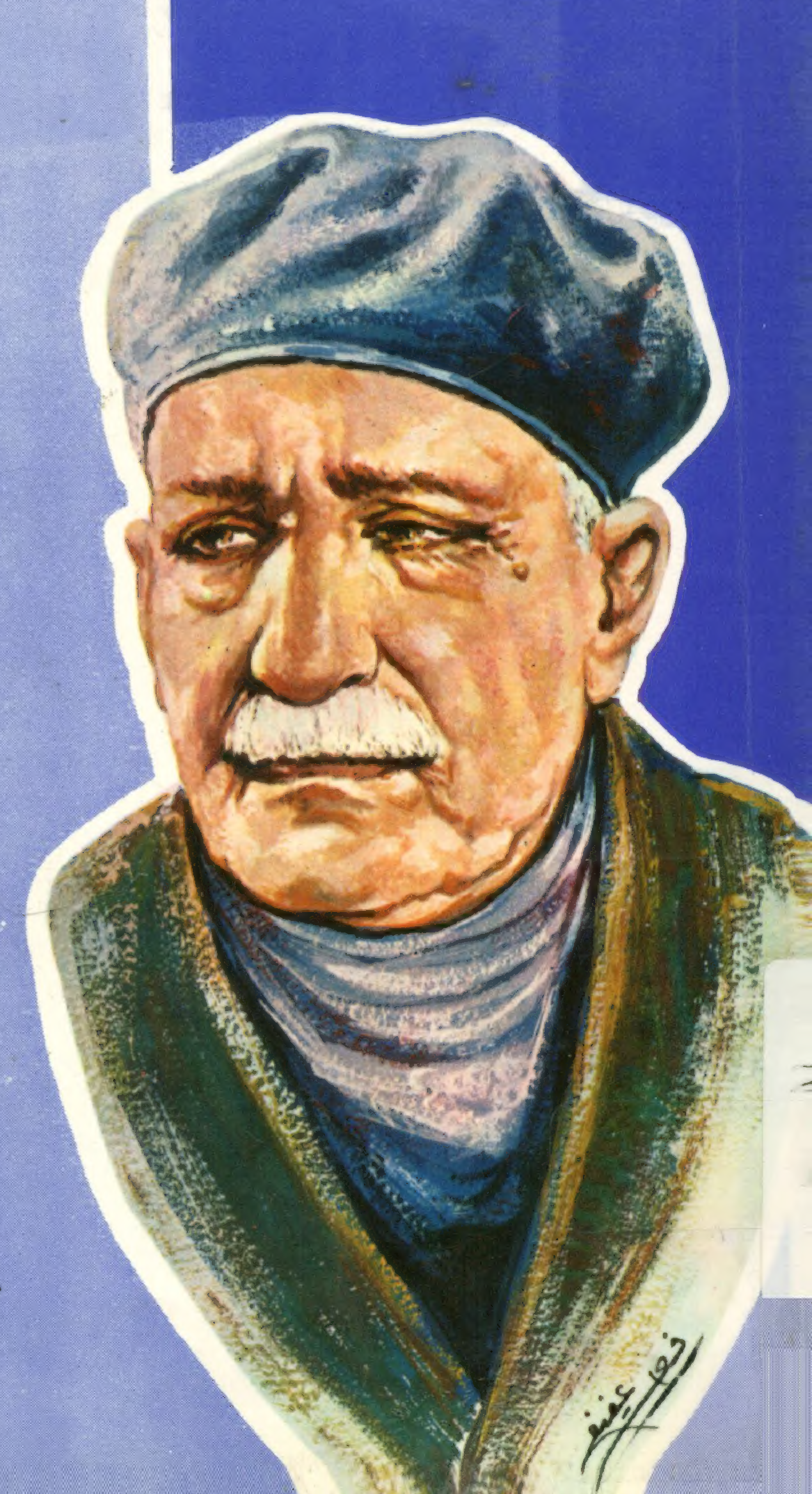
عبّاس محمود العقّاد

المسيح



منشورات المكتبة العصريّة
صيدا - بيروت

عبقرية المسيح

عبقرية المسيح

في التاريخ وكشوف العصر الحديث

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسها شريف عبد الرحمن الأنصاري
صيدا - تلفون ٧٢١٦١٢ - ٧٢٠٣١٧
بيروت - تلفون : ٢٣١٥٤٥
ص.ب بيروت : ٨٣٥٥ - ص.ب صيدا : ٢٢١
تلكس: LE ٢٠٤٣١ SCS

تقديم

طبع هذا الكتاب مرتين في حياة واضعه الأديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد. ولما نفدت الطبعة الثانية أو كادت تفضل السيد شريف عبدالرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت بتحمل عبء الطبعة الثالثة لهذا الكتاب حرصا منه على توفير الفوائد الأدبية والعلمية والدينية التي تنطوي عليها آثار العقاد، وحثا للأجيال الحاضرة والقادمة على ورود مناهل المعرفة التي تبدو غزيرة ثرارة في جميع ما أبدعته قريحة هذا الأديب العبقري العملاق.

ونحن في تقديم هذا الكتاب «حياة المسيح» لا نرمي الى تلخيصه، ولا الى شرح ما تضمنه من آراء وأفكار وأبحاث، لأن قارئ العقاد يفترض فيه ان يؤخذ بسحر بيانه، فيستغرق في تتبع أفكاره حتى يبلغ نهاية المطاف، دون أن يشعر بالحاجة الى شرح أو بيان. وكل ما نبغيه من هذا التقديم هو ذكر لبعض النماذج في التحليل والتعليل والتصويب، وهي الأمور الثلاثة التي يلحظها القارىء في كتب العقاد جميعها، ويشعر معها بقوة الحجة التي لا يجد العقل مناصا من التسليم بها والركون اليها.

وأول ما تناوله بالتحليل والتعليل تلك الظاهرة الفريدة في العالم الانساني، ظاهرة دعوة النبوة التي قادته المقارنة الطويلة بين الديانات الى التأكيد بأن منشأها الأول هو مدن القوافل. ويعلل ذلك بأن هذه المدن مثل: أور، وبعلبك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدين، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز، كانت بيئات وسطى بين الحضارة والبداوة، فلا هي متحضرة تحضرا كاملا، ولا هي متبدية في مجمل جوانب الحياة فيها. وتبعا لذلك فهي لا تعول، كمدن الحضارة، على نظام الدولة في تشريع الحقوق، ولا

على سنة الثأر والغلبة، كما هي الحال في بداوة الصحراء وانما هي وسط بين الطرفين، وفي حاجة الى تقرير الحقوق، لتستقيم المعاملات المتشابكة، ويطمئن الطارقون ذهابا وايابا، ويرتدع المتعطشون الى المال والمتعة العارضة، ويوضع حد لأولئك الذين يبغون الغلبة عن طريق المكر والخداع. ولهذا كانت مدن القوافل تتطلع الى مصدر للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النقمة والثأر، ألا وهو مصدر الهداية النبوية التي ستجد لها دعامة قوية من حماسة النفوس في البادية، وشعورها بقيمة العهد ورباط الأمانة.

وهناك ظاهرة أخرى تستلفت النظر، وهي كثرة الأنبياء بين بني اسرائيل حتى وجد منهم في العصر الواحد نحو أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول. ويرى العقاد أن هؤلاء الأنبياء الكثر يختلفون كثيرا عن كبار الأنبياء مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم في ان هؤلاء الأنبياء الكبار أقدموا على أمور صعبة وشاقة، وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها، من مثل تحطيم آلهة، وتسفيه أحلام، وتغيير عقائد. فضلا عن ان الفترة بين نبي وآخر كانت تطول حتى تبلغ مئات السنين مما يدل على أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في عمر الانسان مرتين. في حين أن أحوال النبوءة في بني اسرائيل تخالف الصورة التي يقدمها الينا كبار الأنبياء من حيث الدعوة التي يقومون بها. والصدام الذي يتعرضون له، والفترة التي تفصل بين نبي وآخر. وخير ما يحدد مهمة الأنبياء بين بني اسرائيل، ويعين مكانهم بين عامة الشعب وخاصته قول النبي (محمد) صلوات الله عليه: «علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل»، مما يدل على أن عمل النبي في شعب اسرائيل لا يتجاوز عمل العالم الفقيه في الأمة الإسلامية. بل ينحصر في تأييد العقائد والمبادىء التي جاء بها الأنبياء الكبار السابقون ابراهيم وموسى ويعقوب، والتنديد بكل من يخالف السنن التي رسموها ودعوا اليها. فما كان النبي من هؤلاء صاحب رسالة تدعو الى انقلاب جذري في حياة الناس وعقائدهم، وانما هو حارس شريعة ورسول اصلاح.

وتصدى العقاد في كتابه لمبحث عويص، وقضية هامة هي قضية الشك في وجود السيد المسيح. فقد ظهرت في القرن الثامن عشر مدرسة الشك المطلق في

مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر، وذهب كتاب هذه المدرسة الى الشك في وجود الأنبياء والمرسلين فشكوا في بوذا وابراهيم وموسى وعيسى، وسرى شكهم الى الأدب فشكوا في شخصية هوميروس، وفي شخصية شكسبير، ومن لم يتناولوا شخصيته بالشك قصروا شكهم فيه على ما نسب اليه وما نشر باسمه. وطغت نزعة الشك هذه على كثير من كتاب القرن التاسع عشر وظهر فيه كثير من الكتب التي فند فيها أصحابها أقوال المؤرخين ورجحوا أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال. وشمل شكهم ما ذكره يوسفوس المؤرخ اليهودي في تاريخه عن «عيسى القدّيس» زاعمين أن هذه العبارة أضافها أحد القراء المتأخرين ليسد بها النقص الذي شعر به من عدم الاتيان على ذكر المسيح.

وهنا تبدو مزية العقاد الكبرى في البحث والاستقصاء والتصويب، فيورد جميع ما رد به المؤرخون وعلماء اللاهوت على أولئك المشككين مدعوما بالحجج الساطعة والبراهين الجازمة التي تنفي كل شك وتكشف الغشاوة عن وجه اليقين. وأبدى عجبه واستغرابه لأمر المنكرين لوجود المسيح الذين لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا معقولا لكثرة عدد المسيحيين وانتشارهم في مختلف بقاع الأرض بعد جيل واحد من عصر الميلاد، وهل يعقل أن يكثر كثرة هائلة، وفي مدة قصيرة، الأتباع والمؤمنون برجل موهوم لا مكان له الا في مسارح الخيال؟

ان اصدق الدلالات، عند العقاد، على ثبوت شخصية السيد المسيح، هي أن دعوته جاءت في الزمان والمكان اللذين كانا أحوج ما يكونان فيه الى من يعيد الحق الى نصابه، ويرد الضالين عن التمادي في الانحدار الى متاهات الضلال.

ويقف العقاد في فصل «آداب حياة» عند الأقوال التي جاءت على لسان السيد المسيح في مجال التوصية والوعظ فلا يرى فيها ما ينكر أو يستغرب اذ الغرض الذي يرمي اليه المسيح منها تطهير النفس وتنزيهها أولا حتى يبلغ التطهير أعمق أعماقها، واجتثاث ما تنطوي عليه من جذور الشر وبذور الفساد ثانيا. وذلك مثل قوله: «من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء» و «لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر.

ومن سخَّرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين » و « أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم، واغفروا لمن يسيء اليكم ».

ولا شك أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف، فاذا حث الناظر الى امرأة نظرة اشتهاء على فقء عينيه فانما يعني ما نعنيه نحن عندما نهدد الثرثار بقطع لسانه اذا لم يعمد الى السكوت. هذا الى أن هذه الوصايا كانت موجهة الى تلاميذ المسيح ورسله المتجردين لنشر الدعوة، وكل دعوة تحتاج من دعاتها الى مثل التضحيات التي انطوت عليها تلك الوصايا. أما غير التلاميذ والرسل من أبناء الدنيا الذين يعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم فيكفي أن يعملوا بروح هذه الوصايا، ويبالغوا في تهذيب نفوسهم وتطهير قلوبهم وضمائرهم، وأن ينكروا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكره السيد المسيح.

ومما تناوله المؤلف بالتعليل تسمية المسيح بالمعلم، ومناداته بهذا اللقب سواء من قبل تلاميذه أو خصومه، أو من ليسوا تلاميذ له ولا خصوم. وقد حملهم على تلقيبه بهذا اللقب ما لمسوه في كلامه من علم واسع بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها وتوضيح مراميها. وقد أشارت الأناجيل الى أنه كان يرتل المزامير ويحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال وما أثر عن موسى. ويرجح بعض المؤرخين معرفته باللغة اليونانية التي كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل. الا أن معرفته بها كانت معرفة مخاطبة ولم تكن معرفة دراسة. ومن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي كانت تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وأنه كان يعرف الآرامية ويتقنها اتقان البلغاء فيها. والى جانب هذه الثقافة الدينية واللغوية الواسعة كانت تتوفر فيه قدرة فائقة على كسب النفوس واجتذاب الأسماع وافحام ذوي المكابرة والعناد، ناهيك بضرب الأمثال بأسلوب أخاذ ترتاح اليه الخاصة وتأسر ألباب العامة. كل هذا تتوجه شخصيته المهيبة ووقاره الرزين، فاجتمعت فيه كل مزايا المعلم الروحي، والهادي المرشد الأمين.

أما لقب « المسيح » ومعناه الممسوح بمثل الدهن وبالبركة لمن ينصب كاهنا أو نبيا أو ملكا فقد لقب به عيسى عليه السلام لأنه جاء في العصر الذي كان

يأمل فيه الناس ظهور مسيح أي رسول الهي هاد يقضي على سلطان الغالبين، ويهدي الخراف الضالة. وقد اشتد هذا الأمل على أثر دخول فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد. وكان المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا مخلصا هاديا، الا أنهم كانوا لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام.

وأما تسميته بابن الله فقد سبقها ورود الأبوة الالهية في مواضع متعددة، منها ما جاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله، ومنها ما ورد في كلام موسى عند مخاطبته فرعون أن بني اسرائيل جميعا أبناء الله. وجاء في سفر التثنية: «أنتم أبناء الله». ووردت كذلك مرارا في المزامير حيث قيل: «قدموا للرب يا أبناء الله».

وفي العهد الجديد وردت مخاطبة الله فيه باسم الأب في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله: «أبانا الذي في السماوات»، وفي قول المسيح للتلاميذ: «إن أباكم واحد هو الذي في السماوات» وعند حديثه عن ولادة الروح وولادة الجسد قال: «وكل ولادة للروح فهي بنوة لله».

ولا شك أن القارىء الكريم سوف يلاحظ أن العقاد- رحمه الله- لم يشأ أن يتناول في أبحاثه مسألة الخلافات الدينية والعقائدية المتعلقة بشخصية المسيح عليه السلام دفعا للجدل الذي يثير النفوس ولا يستقر بها على صعيد الاقتناع والتسليم. وقد دل بهذا على شغفه بالتجرد والنزاهة والسعي الحثيث وراء الحقائق الكبرى التي تجمع بين الأطراف وتطمئن اليها نفوسهم.

والى هنا نكتفي بما تقدم من بعض التحليل والتعليل والتصويب، ولا يمنعنا هذا من التنويه بما اشتمل عليه الكتاب من أبحاث ومعلومات هي من الدقة والشمول بحيث قد تغني عن طلب المزيد من أي مصدر أو مرجع قديم أو حديث.

وختاما، لا نجد خيرا من انهاء هذا التقديم بما ختم به المؤلف كتابه من افتراض عودة المسيح عليه السلام الى عالمنا المعاصر وما يمكن أن يجري على لسانه أو يجول في ذهنه من آراء وملاحظات تتفق مع ما نادى به ودعا اليه في رسالته الإلهية والروحية القويمة. وأقرب شيء أن يكون لو عاد السيد المسيح

الى الأرض هو انكاره للكثير مما يعمل اليوم باسمه، ونعيه على أتباعه ما كان ينعاه على الكتبة والفريسيين من الرياء والنفاق والتظاهر بغير ما تخفيه الضمائر وتنطوي عليه القلوب من مكر وخداع. ولا بد أنه سوف يؤاخذ الناس بما آخذهم به في أيامه على الأرض، ويجد انسان اليوم كانسان الأمس في ميله الى الشر والعداوة، وفي ايثار القشور على اللباب، واتخاذ التقوى سلما الى التعالي. وهو بهذا أشبه بالخمر الجديدة في الزق القديم!

وهنا قد يرد على خاطر المفكر المتربص أن يسأل: ما دام الشر باقيا لا يزول، وأن الانسان الحديث هو الانسان القديم من حيث سجايا الشر وغرائز الضلال، ففيم يشقى المصلحون، ويهلك الشهداء، ويأتي الأنبياء نبيا بعد نبي، ويجاهد المجاهدون في سبيل حمل الرسالات والتبشير بها؟

ويجيب العقاد المؤمن برسالة الخير في هذه الدنيا ان هؤلاء المصلحين، والشهداء، والأنبياء، والمجاهدين الذين يتوافدون على الدنيا جيلا بعد جيل هم أشبه بالأطفال الذين يتحملون عناء التعلم منذ نعومة أظفارهم، ويظلون مدى الحياة ساعين وراء المعرفة ينشدونها أينما وجدوها، ومع ذلك يستمرون متعطشين الى المزيد منها شاعرين بجهل الكثير الكثير، والدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة، وجهاد الضمير!

صيدا - منيف لطفي

مقدمة

من رغباتي التي كنت أرددها في نفسي كلما راجعت أسماء الكتب التي أترقب الفراغ لتأليفها - أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت في رسالات أكبر دعاتها في العالم الانساني: ابراهيم الخليل وأبنائه: الكليم، والمسيح، ومحمد عليهم السلام

هذه الظاهرة الإلهية - دعوة النبوة - ظاهرة فريدة في العالم الانساني لم تظهر بين الأمم في غير السلالة السامية، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات في هذه الأمم

وسببها من جانبها التاريخي فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل، لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبداوة، وكذلك كانت أور، وبعلبك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدين، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز، وهي بيئات لا الى حضارة المدن التي تعول في تشريع الحقوق على نظام الدولة، ولا الى بداوة الصحراء التي تعول في تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة. ولكنها - مدن القوافل - وسط بين الجانبين، مع حاجتها الى تقرير الحقوق في كل لحظة، لدوام المعاملات واشتباكها، ولكثرة الطارقين ذهابا وايابا، ممن يجدون المال، ويبحثون عن المتعة العارضة، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء، وحلبة الخداع والادعاء

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدرا للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعادي والمعتدى عليه، وذلك هو مصدر الهداية النبوية في بيئة وسطى، تهيأت لها حماسة النفوس في البادية، وشعور النفوس بقيمة العهد ورباط الأمانة في كل علاقة واسعة،

كالعلاقة التي ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة

ومما وقفت اليه، مغتبطا بهذا التوفيق، انني اهتديت الى حكمة هذه الظاهرة في سير الخليل ابراهيم، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام، وكل هذه السير ظهر في حينه فظهر من استقبال العالم له، أنه لم يكن رغبة من رغباتي القوية وحسب، بل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الآراء والنحل، لا نحسبها برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة، مما ألفناه خلال السنوات الأخيرة

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية، أملا في الوقوف على جديد يضاف الى تاريخ الداعى أو تاريخ الدعوة، أو توقعا لتوكيد شيء من القديم يحتاج الى توكيد أو الى تعقيب.

الفصل الأول

كشوف وادى القمران وتفسيرات من فلسفة التاريخ

- في وادى القمران
- تفسيرات من فلسفة التاريخ
- رد وتعقيب

في وادى القمران

تهال في بعض التعبيرات المجازية ان حادثا من الحوادث وقع في طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة. فاذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير، قلنا إن السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها في أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح.. فان اللفائف المطلوبة التي كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية، وأمامي الساعة ثبت موجز مضموم الى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة، ليس فيه من شيء غير أسماء الكتب والرسائل التي ظهرت في موضوع تلك اللفائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧... وهذا عدا الكتب والرسائل التي ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع، ممن لم يقصدوا الى التعقيب على تلك الكشوف، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح

واتفق أن اللفائف كشفت، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها، في مطلع سنة ١٩٤٧، لأنها كشفت بوادى القمران من شرق الأردن، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين، فحالت دون البحث الهادىء والتنقيب المأمون في ذلك الجوار، ولم يتصل خبر تلك الكشوف الهامة على شيء من التفصيل أو البيان المفهوم، الا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراستها حوالي السنة التي ألفت فيها كتابي عن «عبقرية المسيح» وهي سنة ١٩٥٢

فلما علمت بنبأ هذه اللفائف في وادى القمران، توقفت عن اعادة طبع الكتاب قبل أن تتهيأ لي فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللفائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دفائن التاريخ المجهول، وفيها، كما قيل

يومئذ، كتاب كامل من العهد القديم، وتعليقات على كتب أخرى، ودفتر واف بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى في الشعائر والعبادات.

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن[1] بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران ليثنيني لزاما عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل ابراهيم وعهد موسى الكليم.. فان البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل، يبتدىء بنا من البداءة الأولى، ويقترب بنا من مطالعها أو ينابيعها التي تقدمت قبل جميع الينابيع، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهودا من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضا فانه قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادي القمران، اذ كان منها، كما قيل، لفائف تتضمن كتبا من التوراة، وقطعا من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملا يساور العلماء الحرفيين واللاهوتيين، ففضلت من أجل هذا أن أرجىء الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئا بالكتابة عن الخليل ابراهيم، وسميت كتابي عنه «بأبي الأنبياء» وانتهيت فعلا من البحث في تفاصيله الى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية، اذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه، وكان انتقاله من «أور» الى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز، سلسلة من الشواهد البارزة، تلفت النظر الى هذه الحقيقة، وتجلوها على صورها المتقاربة أتم جلاء

أما الموضوع الذي توقفت عن المضي فيه ريثما تستقصيني موارده الجديدة فقد كان يتوقف حوالي سنة ١٩٥٣ على مصادر ثلاثة: أهمها لفائف وادي القمران، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغربية، ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير

(١) المرتهن: ارتهن بالامر: تقيد به.

الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية

وقد كنا نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب اشعيا، ونسخة مقروءة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوة التي حققتها الحوادث التالية، وشذرات من تفسير كتاب ميخا، وقصة تسمى الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة، ونسخة آرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم، ونسخة مفصلة لآداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمنا بصومعة وادى القمران، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة، ويبدو من أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل، لا تقدر عند العلماء الحرفيين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهر اللاهوتيين على الاجمال

ولو أن أحداً أراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللفائف خلال هذه السنوات الخمس، لما استوعبها جميعا، ولو كرّس لها كل وقته.. وحسب القارىء العربي أن يعلم انها بحثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية، ولم تخل منها لغة من لغات الحضارة الغربية.. قد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة، واختلاط اللهجات واللغات، وموارد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف، كما تناولت أسماء الاعلام وما اليها من الالقاب والصفات وما يقترن بها من تواريخ الشعوب والقبائل، ومواقع الأرض وعوارض الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات، في كل فترة على حسب حظها من الأصالة أو الاستعارة، وعلى حسب المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها.. واتسع نطاق البحث الى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء، وصناعة الآنية الفخارية، وعادات الأكل والشراب، وأزياء الكساء، ومواد الأطعمة، وثمرات النبات، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس والقرن الأول بعد الميلاد ولم تستقر بعد كل هذا التوسع وكل هذا الإمعان والتدقيق على قرار وثيق.

ومن البديهي اننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض

والنقائض، وعلى كل ما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدول، ومواضع التشكيك والترجيح، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه الى القول الجديد في تاريخ السيد المسيح، ولكننا عمدنا الى نخبة من كتب الثقافات التي ألمت برؤوس المسائل، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعنينا، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة في عالم الروح، وان كل مشابهة بينه عليه السلام، وبين مذاهب الدين قبل عصره، تنتهي عند الظواهر والأشكال، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت اليه عقائد الدين على يديه.

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت اليها أكثر البحوث والمناقشات، أن نسَّاك صومعة القمر ن كانوا زمرة من «الاسينيين» احدى الطوائف المتشددة في رعايتها للاحكام الدينية، وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود، وهذه هي الطائفة التي ذكرناها في «عبقرية المسيح»، فقلنا عنها ما **فحواها** انها أقرب الطوائف الاسرائيلية الى التطهر من أدران المطامع والشهوات، وانهم «كانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات... وان أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرَّم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة... والمادة عندهم مصدر الشر كله، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة... وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم ... وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون ان الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح»، ثم قلنا عنهم في سياق الكلام على زمرة المتنطسين[1] بمصر Therepeuts ان هؤلاء المتنطسين ربما كانوا أساتذة النساك اليهود المسمين بالآسين أو الاسينيين على قول بعض المؤرخين، لأننا رجحنا ان الاسم مأخوذ من كلمة الآسى بمعنى الطبيب، وهي تقابل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المتنطسين..

---

(١) المتنطسين: تنطس الرجل: تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه. وفي الامور: استقصاها وأمعن النظر فيها، والاخبار: تجسسها.

فاذا صح ان زمرة وادي القمران كانت تنتمي الى الآسين، وصح أكثر من ذلك ان صومعتهم كانت هي البرية التي كان يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان- فالجديد في هذا الكشف هو توكيد الحاجة الى رسالة السيد المسيح، أو توكيد فضل الدعوة المسيحية في اصلاح عقائد القوم كما وجدتها على أرقامها وأنقاها بين أتباع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد..

فالكتب الأسينية- أو الآسية- التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظام الجماعة وآداب سلوكها وشدة حرصها على الشعائر الموروثة بين قومها، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذي انتهى الى غاية مداه في تلك الفترة، وهو داء الجمود على النصوص والحروف، والانصراف عن جوهر العقيدة ولباب الايمان، ولا تزال النحلة الاسينية نفسها أدل على الحاجة الى الاصلاح من النحل المتهمة أو المحاطة بالشبهات، لأن النحلة المتهمة تجد اصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القائمة، وكل نحلة يهودية زائغة عن سوائها تجد من يقومها من العارفين باستقامتها في نطاق الديانة اليهودية، ولكن الحاجة الى الاصلاح انما تثبت كل الثبوت اذا بلغت النحلة أرقى ما تبلغه، واستنفدت كل طاقتها تهذيبا وتطهيرا واخلاصا وتذكيرا، ولم تزل بعد ذلك قاصرة عن تزويد الروح بما تتعطش له وتفتقر اليه. وكذلك كانت النحلة الأسينية التي كشفت عنها لفائف وادي القمران، أيا كان اسمها، وأية كان وجهتها، فانها لم تمهد لرسالة السيد المسيح الا كما يمهد المريض للعلاج أو يمهد الداء للدواء، ولا شك أن اللفائف المكشوفة ذخيرة نافعة في بابها، ولكنها لا تضيف الى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية، ولا تخرجنا بشيء جديد في أمر هذه الرسالة، غير انها تؤكد لنا فضلها ولزومها في أوانها، فمها يكن من غرض النحلة الاسينية، فهي في أصولها وفروعها بقية محافظة على تراثها متشددة في محافظتها، ناظرة الى أمسها حتى في التطلع الى الغد المرجو انتظاراً للمخلص الموعود على حسب النبوءات الغابرة، ولهذه الآفة الوبيلة- آفة التشدد في عبادة المراسم والنصوص- كانت الدعوة المسيحية رسالة لازمة تعلم الناس ما هم في حاجة الى أن يتعلموه كلما غرقوا في لجة راكدة من الحروف الميتة والأشكال المتحجرة، تعلمهم ان العقيدة مسألة فكرة وضمير، لا مسألة حروف

وأشكال... وهذه هي رسالة السيد المسيح في ذلك العصر الموبوء بجموده وريائه على السواء، لأن الرياء انما هو في باطنه جمود على وجهه طلاء.

تفسيرات من فلسفة التاريخ

ونستطرد من تلخيص نتيجة اللفائف المكشوفة الى تلخيص نتيجة المناقشة- أو المناقشات الطويلة- حول الترجمة المنقحة في اللغة الانجليزية لكتابي العهد القديم والعهد الجديد.

اننا سمعنا بنبأ هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنبأ اللفائف المكشوفة، وكدنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب اشعيا في العهد القديم، فاعتقدنا ان المشتغلين بتنقيح الترجمة رجعوا الى نص جديد في لفائف وادي القمران لأن كتاب اشعيا هو الكتاب الكامل الذي اشتملت عليه تلك اللفائف فيما اشتملت عليه من الآثار المتفرقة، ولكننا تلقينا البيان الوافي عن عمل المنقحين، فلم نجد فيه ما يشير الى علاقة بين الكشوف الجديدة وبين تنقيح الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص، لأن الفقرة التي جاءت في كتاب اشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التنقيح ومعارضيه لم تفاجيء علماء اللاهوت برأي لم يعلموه من قبل، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من الطرفين المتقابلين..

ثارت الضجة حول فقرة في الإصحاح السابع مترجمة في اللغة العربية بالكلمات الآتية: «... يعطيكم السيد نفسه آية. هنا العذراء تحمل وتلد ابنا، وتدعو اسمه عمانويل»

فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الانجليزية المنقحة بعبارة «امرأة شابة» في مقابلة كلمة «علامة» العبرية، كلمة Parenthos «بارانثوس» في الترجمة السبعينية، ولا جديد أيضا في هذا الخلاف لأنه خلاف بين المذاهب الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود ببتولة[1] السيدة مريم أم المسيح عليه السلام. فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالبتولة الدائمة قبل ميلاد

---

(١) بتولة: البتولة: الانقطاع الى الله عن الدنيا. وترك الزواج والزهد فيه.

المسيح وبعده، ومنهم من يقول بالبتولة قبل ميلاده.. ثم ولادة اخوة له بعد ذلك وردت الاشارة اليهم في كتب العهد الجديد، ولكنهم من يرجع الى النصوص العبرية ولا يذكر كلمة البتول كما تقدم... وجواب القائلين بالبتولة الدائمة على المستشهدين بذكر اخوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد انهم أبناء عمومة أو انهم اخوة منسوبون الى يوسف خطيب السيدة مريم، الى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد.

ولقد كانت أمامنا تفاصيل هذا الخلاف عند كتابة «عبقرية المسيح» فلم نعرض له، ولم نعرض لبحث من البحوث في هذا الصدد، الا ما كانت له صلة لا فكاك لها برسالة السيد المسيح في عالم الهداية الروحية. ولهذا لم نذكر معنى كلمة «أخي الرب» التي شفعت باسم «جيمس» المقابل لاسم يعقوب في الترجمة العربية، وقلنا عنه انه «جيمس قريب السيد المسيح».

وقد خطر لبعض الناقدين اننا سميناه كذلك لأننا لم نطلع على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد، وانه لظن يستسهله من يستسهل النقد بغير روية، ويحسبه بعيدا كبعد المستحيل من يعلم من قراءة «عبقرية المسيح» اننا على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة، لنبحث فيها عما بحثناه، وننقل منها ما نقلناه... فالآن تعرض المناسبة التي نذكر فيها سبب تلك الاشارة على علاتها، دون أن نبدي رأيا في تصحيف كلمة جيمس من كلمة يعقوب، ودون أن نقرر في الاشارة العابرة حكما فاصلا لا موضع له بين هذه التفصيلات.

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة، وضجة اللفائف المستخرجة من وادي القمران، مع تكرار الكلام عن كتاب اشعيا في كلتا الضجتين- هو الذي أوحى الينا أن ننتظر ما وراء ضجة الترجمة كما أوحى الينا أن ننتظر من وراء ضجة اللفائف المكشوفة. فقد يكون هنالك من النصوص والأسانيد ما يوجب اعادة النظر في كتابة «عبقرية المسيح»... ولولا هذا التقرير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجبا للانتظار الى ما بعد فراغ القول منه. اذ كانت أوجه الخلاف جميعا في هذه المسألة معروفة من زمن قديم، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتتبعها في مصادرها قبل الكتابة عن السيد المسيح.

الا اننا نسأل الآن بعد خمس سنوات: هل كان مما يريح الضمير أن نمضي في اصدار الكتاب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعاقب في اللغات الغربية كتابا بعد كتاب عن السيد المسيح ورسالته، ونظرات المحدثين الى هذه الرسالة في زمانها وفيما أعقبه من الأزمنة؟..

اننا تمهلنا قبل خمس سنوات في اصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود الى أسباب توجب المراجعة واعادة النظر، ولكننا نسأل اليوم: ترى لو اننا لو علمنا يومئذ محور الضجة على الترجمة، وعلمنا انها موضوع معاد في قضية معروفة- هل كنا نستخف من أجل ذلك بالفيض المتدفق من الكتب والرسائل التي كتبها أصحابها في موضوع كموضوعنا، ومن وجهة نظر تعنينا، أيا كان شأنها من الموافقة، أو المخالفة لوجهة نظرنا؟

نحسب ان اشتغالنا بالاطلاع على طائفة من تلك الكتب كان سببا كافيا لتعليق النظر كي نصدر الكتاب على الأقل مطمئنين الى عاقبة هذه الأناة.. فان غيَّر الاطلاع على الكتب الجديدة آراءنا في موضع من مواضع الكتاب فتلك فائدة جديرة بالانتظار، وان اطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك طمأنينة نحمدها، وما ضيعنا شيئا بهذه الاناة.

وأيسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة، ان الاطلاع عليها كان متعة من متع القراءة، ترضينا قارئين قبل أن ترضينا مؤلفين، وقد كان فيها السمين والغث، والمتفوق والمتخلف، كما يكون في كل تأليف، ولكننا خلقاء أن نحمد حظنا مما استوفينا منها، لأن الغث منها كان من قبيل المقروءات التي تنكشف غثاثتها للمتصفح بعد الإلمام بسطور هنا وسطور هناك. وأما السمين منها فقد كان كافيا في موضوعه، كما كان مكافئا لما ينفقه القارىء من الوقت والجهد فيه.

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين: باب التأمل وما اليه من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية وباب النقد التاريخي والتحليل العلمي على قواعد المقابلة بين الأديان.

ويلذ القارىء ولا ريب أن يعلم رأي الفيلسوف العصري في المقابلة بين

تعاليم السيد المسيح وتعاليم نيتشه في العصر الحاضر، أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين، أو يعلم وجوه المشابهة ووجوه المناقضة بين خطة المسيح في الاصلاح الانساني وخطط الساسة ودعاة الاجتماع في القرون الحديثة، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن بكلمات البلغاء من أصحاب الكلم الجامع والحكمة المأثورة... فهذه وأشباعها هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحيانا أن تدل عناوينها على أغراضها، ولكننا لا نعتقد انها مما يقتضينا البحث في كتابنا هذا ان نبسطها أو نطويها موجزين... وقصارى ما نقوله عنها انها أشبه بالصور المتعددة للوجه الواحد في لوحات كثيرة،ليست محل تلخيص ولكنها محل استزادة لمن شاء..

أما الكتب التي نسلكها في باب النقد التاريخي والتحليل العلمي ففيها حقا ما يهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية وفيها- ولا مراء- بحوث جديرة بطول التأمل وإنعام النظر ومواجهة الموضوع كله في نطاقه الواسع من جميع جهاته، وليس في استطاعة أحد أن يواجه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد له بكل عدته من المراجع والأسانيد.

ومن الاطالة على غير طائل أن نسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث النقدية، فاننا- بعد ما وقفنا عليه منها- نرى ان القارىء لا يفوته شيء من جوهرها اذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان جملة المناقضات والأقاويل التي تتعرض للقبول أو الرفض في هذه البحوث، ونعني بها كتاب[1] «الجانب الآخر من القصة» تأليف روبرت فيرنو، وكتاب[2] «انجيل الناصري يعاد» تأليف روبرت جريفس وجوشيا بردو، وكلا الكتابين مؤلف باللغة الانجليزية.

وندع التخمينات الملفقة التي تتخلل الكتابين، وينبغي أن نذكر - بداءة- انها تخمينات كثيرة وانها في بعض الأحايين تخمينات معتسفة[3] يعترف

(1) The Otherside of the story by Rubert Furndaux

(2) The Nagarene Gostored by Gras and podra

(٣) معتسفة: اعتسف الطريق: عدل عنه. والامر : ركبه بلا روية.

المؤلفون باضطرارهم اليها لاتمام الحلقات المفقودة في السلسلة التي سكبوها من بقايا الأسانيد المتخلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع خيالهم في مواضع النقص المعترضة في فجوات تلك الأسانيد، ولا ننسى أن أحد المؤلفين- روبرت جريفس- قصاص يعتمد على التطور الفني في التوفيق بين الأخبار وتنسيق الملامح وملاحظة التناسب بين ألوان الشخصيات، وله قصة في الموضوع نفسه سماها «عيسى الملك» يشرح فيها بالاسلوب الروائي نظريته التاريخية عن سيرة السيد المسيح، وزبدتها ان السيد المسيح قد نشأ برعاية هيئة باطنية كانت تعمل لتعجيل الخلاص على يد الملك «المسيح» الذي يأتي من ذرية داود لانقاذ شعب الله المختار، وان يوحنا المعمدان هو الذي وكل اليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات، فاختاره وعاهده وبايعه «ملكا» مسيحا أي ممسوحا بالزيت المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين، وان زعماء الهيكل لم يكونوا جميعا من المطلعين على سر هذه المبايعة التي جمعت بين يمين الايمان ويمين الطاعة، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد، ثم جرت الحوادث مجراها الذي نعلمه من الاناجيل مزيدا عليها هنا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ الباطن كما جمعه المؤلف من أسانيده ومن وحي خياله أو تنسيق فنه وتقدير ظنه، وربما زاد الجانب المضاف هنا وهناك على الجانب الأصيل..

ونحن ندع هذه التخمينات ونجتهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في اضافتها، ولكننا لا نريد أن نحذفها حيث تترك الفراغ بعدها ادعى الى الحيرة والتردد من الاثبات.

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات ان الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع الى مركزين: أحدهما برئاسة جيمس أي (يعقوب) المسمى بأخي الرب ومقره بيت القدس، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيدا عن سلطان هيكل اليهود. وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب الى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة

الرومانية، كما يظهر من وصاياها ومن أجوبة المسيحيين في الخارج عليها، وكلها وصايا تحث على رعاية الشعائر الاسرائيلية كما تقدمت في النبوءات.

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتى تهدم الهيكل وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبددت الجماعة في أطراف البلاد، وآلت قيادة الدعوة الى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين فكان لذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الاقناع، اذ اختلف الأسلوبان بين الخطاب الموجه الى اليهود وحدهم، والخطاب الموجَّه الى الأميين النافرين من اليهود.. فبينما كان الخلاص على يد فرد من بني اسرائيل لانقاذهم دون غيرهم أمرا مفروغا منه بين اليهود، كان العالم الخارجي بحاجة الى صفات الهية في الرسول المخلص يقبلها الأميون، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس، وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وتفرق الشعبة المقيمة ببيت المقدس، فوضحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها في بلاد الأميين، وغلبت فيها الصفة الإلهية على غيرها من الصفات المسموعة في جدار الهيكل، قبل الحاح الحاجة الى تدوين الأناجيل وان المؤلفين ليطنبون اطنابا كبيرا في ترديد الكلمات الانجيلية التي تدل على اعتصام السيد المسيح بكتب التوراة، وتوصية التلاميذ باتباعها على سنة الفريسيين، وأشهر هذه الكلمات قوله للتلاميذ والجموع كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى: «انه على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه، ولكن حسب اعمالهم ولا تفعلوا، لأنهم يقولون ولا يفعلون».

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الاصحاح الخامس: «لا تظنوا انني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل...».

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح العاشر: «الى طريق أمم لا تمضوا، والى

مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة ».

ومنها قوله كما جاء في الاصحاح الخامس عشر: «لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة..: » الى أقوال أخرى تفهم من مضامينها ان لم تُفهم من لفظها الصريح كما في هذه الأقوال..

ردّ وتعقيب

وعندنا ان المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أو التنقيب عن الصحائف المطوية اذا كان قصاراهم[1] ان يثبتوا ان الدعوة المسيحية ابتدأت بتوجيه الخطاب الى الأمة التي تدين بالتوراة وتترقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها، وانهم كذلك في غنى عن العناء والعنت اذا أرادوا أن يثبتوا ان القائمين بدعوة الأمم قد اتخذوا لهم أسلوبا في الدعوة غير الذي يتفاهم عليه بنو اسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقدون بما فيها من النبوءات، وان رسل الدعوة المسيحية الى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح في كلامه الذي نقلته عنه الأناجيل.

كل أولئك لا حاجة به الى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مضامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكلفون براهينهم عنتا شديدا اذا حاولوا أن ينكروا ان دعوة الأمم قد بدأت في عهد السيد المسيح، وان التلاميذ والرسل تعلموا منه أن يشملوا الأمم بدعوته يقصروها آخر الأمر على بني اسرائيل. فلم تتوافر أخبار الأناجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة، ولم تأت الأناجيل في هذه الأخبار الا بالنتيجة الطبيعية التي يعززها سياق الحوادث ويستلهم منها منطق الأشياء كما تقول في مصطلحاتنا الحديثة. وماذا كان السيد المسيح صانعا بعد رفض القوم دعوته واصرارهم على رفضها الا أن يتجه برسالته الى غيرهم، أو أن يكف عن هذه الرسالة ويعدل عنها بتاتا، فيعدل عنها التلاميذ والرسل، ولا يتجهوا بها الى الأمم ولا الى اسرائيل؟..

ولا يفوتن المؤلفين أصحاب هذه النظرية ان الرسل الذين بشروا الأمم

(١) قصاراهم: القصارى: الجهد والغاية. يقال: قصاراك أن تفعل كذا.

بالمسيحية هم الدعاة الذين احتملوا أشد العذاب في سبيلها، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفرق دعاة المسيحية في بيت المقدس، ومن يفعل ذلك لا بد أن يكون معتقدا لما يدعو اليه ولا يكون مبلغه من العقيدة انه يحتال لاجتذاب السامعين اليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني اسرائيل... فكيفما كان مرجع هذه العقيد- فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن يدعوا الناس الى تصديقها وقد اطمأنوا اليها قبل أن يروضوا الناس على ابتغاء الطمأنينة فيها.

وبعد: فنحن لا نستغرب الضجة التي أثارها المؤلفون بما ابتدعوه معتمدين على أسانيدهم التاريخية أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتنسيق الصور الفنية من وحي القريحة أو من وحي الخيال.. الا اننا نعود الى انفسنا فلا نرى ان هؤلاء المؤلفين قد أطلعونا على رأي طارىء يدعونا الى تعديل شيء جوهري في الصورة التي أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا خواطرنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب، ويسرنا أننا نعيده اليوم في طبعته الثانية كما بدأناه في طبعته الأولى بغير تعديل يذكر الا ما كان من قبيل المطبعيات والتصحيفات... ويسرنا قبل ذلك اننا لقينا من قرائنا عرفانا مشكورا نغتبط به، ويغتبط به كل من مارس التأليف في هذا الموضوع الجليل على التخصيص، ولا نعلم ان منهجنا في الكتابة عن «السيد المسيح» قد لقي من أحد استنكارا يحسبه الكاتب أو القارىء في حساب النقد المفهوم، وكل ما هنالك ان بعضهم ظن ان التأليف عن السيد المسيح يقتضي منا أن ندين بالمسيحية أو ندين بجميع مذاهبها في وقت واحد، ولم يقل أحد اننا اذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين، أو كتبنا عن أديان الأمم وجب أن ننتقل فيها من دين الى دين، ولو وجب ذلك على باحث لما كُتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعاة اليها ممّن يتفقون في الملة الواحدة أو لا يتفقون... بل لو وجب ذلك لما كتب عن الشرق الا المشارقة، ولا كتب عن أوربة الا الأوربيون، ولا كتب عن الماضي الا من كان فيه، ولا عن المستقبل الا مولود من بنيه، ولا وجوب لشرط من هذه الشروط المفروضة في حكم من أحكام النقد المفهوم.

وانصافا لكثرة القراء الغالبة، نقول انهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة الى جانبها بحساب النسبة الى الألف، لأنها أندر من أن تحسب بحساب النسبة الى المائة، وانما تصادفها على نسبة متفاوتة في شعب شتى من المطالعات التاريخية الدينية، فربما كتبنا عن الخلفاء الراشدين كلاما لم يعجب أفرادا من الشيعة، أو كتبنا عن معاوية بن أبي سفيان كلاما لم يعجب أفرادا من غيرها، ولكن العبرة من وراء هؤلاء بالقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا يرضيهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما في ضمائرهم وخواطرهم، وبين أيدي هؤلاء القراء قدمنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونقدم الآن طبعته الثانية بعنوان « حياة المسيح » على بركة الله..

الفصل الثاني

المسيح في التاريخ

- الشجرة المباركة
- المسيح
- النبوة بين بني إسرائيل
- الطوائف اليهودية في عصر الميلاد .
- الحياة السياسية والإجتماعية
- الحياة الدينية
- الحياة الفكرية

الشجـرة المباركـة

« الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم »

سورة النور

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات[١] وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

سورة الأنعام

« هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[٢] ينبت لكم به الزرع والزيتون »

سورة النحل

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »

سورة التين

« فلينظر الإنسان إلى طعامه، انا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا[٣] وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا »[٤]

سورة عبس

---

(١) معروشات: عرش الرجل الكرم: رفع دواليه على الخشب. (٢) تسيمون. أسام الراعي الماشية: أخرجها إلى المرعى. (٣) قضباً: هو ما يقطع مرة بعد أخرى من النبات. (٤) حدائق غلباً: بساتين كثيرة الأشجار.

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل: شجرة الزيتون. شجرة البحر الخالد. شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الإنسان ودارت حوله، ولا تزال تدور. عالية تعلو خمس قامات وتزداد

باقية تبقى خمس قرون، ثم لا تصير إلى نفاد

كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهي به طيب الطعام، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب[1] وجبائر العظام، من خشبها صور المحاريب[2] وأعواد المنابر، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر، وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلباً لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم، ويرفعون غصن الزيتون!

بوركت في وحي المعابد والضمائر، وبوركت في رموز القرائح والخواطر، فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها: رمزوا بها إلى الضياء، ورمزوا بها إلى السلام، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء، وتزوّدوا منها في البادية والحاضرة، وادخروها للدنيا والآخرة، وإتخذوها للمصابيح في محاريب الصلاة والتسبيح، ورجعوا إليها باسم من أقدس الأسماء، وهو إسم «السيد المسيح»

لأمر ما نبتت في فلسطين، وإنتشرت منها في منابت العالمين، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين، فطافت رسالته حيث طافت، من عليين إلى غايتها من البلاغ المبين

ولو لم تكن «للزيتونة» إلا أن هذا الإسم المبارك مردود إلى سحتها[3] وبركتها، لاستحقت به الخلد المضمون، خضراء على مدى السنين والقرون..

---

(١) الإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ. (٢) المحاريب: المحراب من معانيه: القصر، والموضع الذي ينفرد فيه الملك فيتباعد عن الناس والغرفة. وصدر البيت وصدر المجلس وأكرم موضع فيها. والقبلة. وغيل الأسد وعرينه. والشجاع الشديد الحرب. (٣) سحتها: سيلانها وشدة إنصبابها.

المسيــح

يدل على المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل، وظهر من عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة من الأمريكتين، وليس في هذا عجب.. لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية في طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة، وروى برستيد عن الحكيم أبيور Ipuwer إن المخلص الموعود « يلقى برداً على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه » (١)

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث في جسد إنسان، وقيل إنه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذي يرجعون إليه بتفصيل الإعتقاد في إله النور وإله الظلام، وقد تخلفت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية والإسلام وأشار إليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه إبراهيم إبن سيار النظام حيث قال: « إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له، فإذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه »..

أما الإيمان بظهور رسول الهي يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها، في التلمود والهجادا وما إليها..

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التي وردت في سفر التكوين وسفر

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فينجان.

الخروج وما يليها من أسفار الأنبياء.. فإن المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم، وأول ما ورد ذلك في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب إنه «بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إيل.. أي بيت الله»

وجاء في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج إن «الرب كلم موسى قائلاً:.... وأنت تأخذ أفخر الأطياب، دهنا مقدسا للمسحة، وتمسح به خيمة الإجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل أنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة، وتقدسها فتكون قدس أقداس، وكل ما مسها يكون مقدساً، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم»

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهي التوراة عن المساس بهم كما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر الأيام: «لا تمسوا مسحائي ولا تؤذوا أنبيائي»

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة، فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء..

ثم أطلقت كلمة «المسيح» مجازاً على كل مختار ومنذور، فسمِّي كورش الفارسي «مسيحاً» كما جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا، لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الإسرائيليين وإقامة بناء الهيكل من جديد، وسمِّي الشعب كله مسيحاً كما جاء في المزامير وكتاب النبي حبقوق، ومنه «خرجت لخلاص شعبك: خلاص مسيحك» بمعنى الشعب المختار..

وتكررت في كتب «الهجادا» أو كتب التعاليم الإشارة إلى الرسول المنتظر بأسم المسيح، فتارة يطلق هذا الإسم على يوسف، وتارة على موسى عليهما السلام، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحاً في صورة رسول هاد أو صورة مبرور، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام

وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول، فردد الشعب الإسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من

ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه، ثم ترقى الإيمان « بالمسيح » بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح، وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات ومنها نبوءة أشعيا التي إمتازت بتكرار هذه الوعود، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان[1] إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير، وقد جاء في الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر إنه « محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان »... وجاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر زكريا إنه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار إبن أتان »... وإتفقت أقوال كثيرة على أنه يأتي مسبوقاً برائد يعلن مجيئه، وهو النبي إيليا (الياس) منبعثاً من الأموات.

وقد كان هذا الإرتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الإسرائيلي في تاريخه المتعاقب، فيقوي الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل في إستقلال رعاياها، ويعود الرجاء إلى « المسيح الهادي » كلما إستحكم سلطان الغالبين وبدا أن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع في إنتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية، إقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حيناً، وتفترقان، بل تتناقضان جملة أحيان.. فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومي كله إليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين إلى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة إلى اليقظة الروحية جنوحاً متمرداً على القديم مؤمناً بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على إستعداد..

---

(١) الصولجان: العصا المنعطفة الرأس ومنه صولجان الملك.

النبوة بين بني إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة في الشعب الإسرائيلي منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله وأسباطه. فإن أحوال النبوءة في ذلك الشعب لم تكن على الصورة التي تسبق إلى خواطرنا من النظر في كبار الأنبياء، وتاريخ الفترات التي مضت بين عهودهم في الأمم المتعددة

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة، ونعلم عن يقين أن الذي يقدم على إدعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لإتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين، لأن إتباع الأديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبي الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه أنه يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأقوال أنبيائهم، أما المنكرون والملحدون فإنهم لا يقبلون دعوة النبوءة في هذا العصر ولا في غيره من العصور..

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين إبراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين. ففي إعتقادنا على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في كل جيل ولا يراه الإنسان في عمره مرتين

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقاً لا يسهل تذليلها، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاماً[1] وغيروا العقائد التي درجت عليها الأمم عصوراً بعد عصور، وأقاموا عليها سلطان ذوي السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين

سفهوا أحلاماً: الأحلام: العقول. وتسفيه الأحلام جعلها خفيفة ونسبة أصحابها إلى الجهل والحمق.

والمحكومين. كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام، فمن تولى الهداية إلى دعوة على هذا النحو فهو متعرِّض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقاً لا يقبلون إقتحامه من أحد، ولا يرون أحداً يقتسمه عليهم إلا أعنتوه وأقاموا له العراقيل..

أما احوال النبوءة في بني إسرائيل فينبغي أن نتصورها على غير هذا النحو، لأنها تخالفه من جملة وجوه..

فأول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن وجودهم ندرة، ولم يكن بينهم فترة، أو لم يكن حتماً لزاماً أن تكون بينهم فترة، فقد يوجد منهم في العصر الواحد أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملكٍ إسرائيل «الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم: أأذهب إلى رامة جلعاد للقتال؟..»

وخير ما ورد في صف مكان الأنبياء بين بني إسرائيل قول النبي (محمد) صلوات الله عليه: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»

فقد كان عمل النبي إذن في شعب إسرائيل كعمل الفقيه في الأمة الإسلامية، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة في وقت من الأوقات، ولم يكن قيامهم إنكاراً لقيام الأنبياء من قبلهم، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على إتباع السنن التي رسمها لهم من قبل إبراهيم، وموسى، ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء السابقين، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد إسرائيل «أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم (٨١ تثنية) وأن بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحي فعليهم أن ينبذوه».. «وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب فاعلم أن ما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب، فلا تخف منه»

بل يجوز أحياناً أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع إلى وصايا الأنبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله إسرائيل.. فإذا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة... فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا إن دعاك إلى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو

صدقت الأعجوبة، أو الآية...

« ١٣ تثنية »

ولم تكن النبوءة باذن من ذوي السلطان أمراء كانوا أو كهاناً أو شيوخاً مطاعين في القبيلة. بل يمتلىء يقين الإنسان بالإيحاء إليه فيمضي في تبليغ وحيه ولا يقوى أحياناً على كف لسانه كما قال أرميا: « قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت على فغلبت. صرت أضحوكة وهزء ، وكلمة الرب جللتني بالعار والسخرية، فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد، فكان قلبي كأنه نار محرقة محصورة في عظامي، فلم تكن لي طاقة بالسكوت »

« ٢٠ أرميا »

وكثيراً ما كان النبي ينحى[١] على زملائه في عصره ويخالفهم في تفسير النذر من ربه، كما قال أرميا: « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق إلى الأرض كلها... فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم »

أو كما قال ميخا لملك إسرائيل: « هو ذا الرب قد جعل روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء »

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له: « من أين عبر روح الرب مني ليكلمك »

وكان المعهود في الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء إسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والأنهار كما قال دنيال: « لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع، وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول إذ كنت إلى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عيني ونظرت » بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء في سفر صمويل الأول : « إنك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناي

(١) ينحي على زملائه: أنحى على فلان: تعرض له وتصدى.

وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب »

« ٩ صمويل أول »

أو كما جاء في سفر الملوك الثاني: « فقال اليشع حي رب الجنود، والآن فأتوني بعواد.. فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب »
ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون في جوانب الأنهار «عند نهر خابور إنفتحت فرأيت رؤى الله »

« ١ حزقيال »

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين إنساناً من غير الأنبياء ومن شعب إسرائيل كما ألهم أبيالك وبلعام، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين
وكان الغالب على سامعي النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحي من الله، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلاً على اليقين والإيمان، وربما أذن للنبي أن يطلب الآية ويمعن في طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات

«٧ أشعيا »

على أنهم كانوا يلجأون إلى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الإقامة لعلمهم أنهم أقرب إلى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين في هموم الحياة، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحي صوتاً عالياً ومن كان يحسه إلهاماً أو هداية أو رؤيا صالحة، وغالباً ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج من الأنبياء السابقين، فلم تكن النبوءة إقتحاماً ولا بدعة مستغربة، ولم يكن فيها خطر على النبي إلا حين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف، ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد إلى التنكيل بالنبي في هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وأنه لم يأت من عند الله، إذ كان موت النبي الكاذب إحدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول إن القوم كانوا يبحثون عن

الأنبياء، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها، وأن الإنسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياماً بعد أيام، حتى يصبح السكوت في حكم سريرته عصياناً لأمر الله ونكولاً[1] عن إرادته، ومتى إستقر في سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف في الإيمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش فيه بروح الله أن ينذر ويبشر، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدي الناس إليه كما يشاء.

وفي عصر الميلاد، ذلك العصر الذي ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه لا جرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء في الخير المنتظر، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر في إمتحانه، خوفاً من سهولة الدعوى على الأدعياء، وخوفاً من بطلان الرجاء في إبان اللهفة على الرجاء، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم..

---

(١) نكولا: نكل الرجل عن اليمين نكص وعن العدو هابه وجبن.

الطوائف اليهودية في عصر الميلاد

كان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه المسيح يشتمل على طوائف مختلفة، لكل منها مذهبه في إنتظار المسيح المخلص الموعود.

والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التي سبقتها في بيئاتَ بني إسرائيل.

وضروري من جهة أخرى لأنه - فيما نرى - أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جاوزوا الشك في النصوص والروايات إلى الشك في وجود السيد المسيح نفسه، كأنه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير. وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الإحاطة بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلاً لكل مذهب من هذه المذاهب في ناحية من نواحيه، وكانت هذه التعديلات في جملتها تثوب إلى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا، لابد لها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعاً، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والإيمان.

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها، وهي طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية.

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع « صدوق » وأسرته الذين تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان.

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والإستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء..

وقد كانوا متشددين في إنكار البدع والتفسيرات، متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها التوراة وهي كتب موسى عليه السلام، ويرفضون ما عداها ولا سيا المأثورات المنقولة بالسماع.

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها. فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة في البيئات الرومانية، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوماً في ذلك العصر، وقد كان الشائع عنه يومئذ إنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم، ولكنهم في الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن فإنهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسي وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان، ويملي لهم في هذه النزعة يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة، خلافاً للطوائف الأخرى التي تؤمن بالبعث والحساب..

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة إثنين من كبار الكهنة الصدوقيين وهما: «حنانيا» و «قيافا»، ولم يكن في ذلك عجب، لأن الصدوقيين جميعاً يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون إلى الثورة والإنقلاب.

وخلاصة الآداب الصدوقية أنهم حرفيون في مسائل الدين متوسعون في مسائل المعيشة، وأنهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوي السلطان.

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هي طائفة الفريسيين، وهي أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب، وإن لم يكن بين أفرادها كثيرون في مرتبة الرؤساء والوجهاء.

وإسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة «الفرز» العربية في لفظها ومعناها، فهم المفروزون أو المتميزون وخصومهم يطلقون عليهم هذا

الإسم تهكماً وتحقيراً لاعتقادهم أنهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى. أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه إلى خطاب الله لبني إسرائيل جميعاً كما يرونه في الإصحاح العشرين من سفر اللاويين، فهناك يخاطب الله الشعب قائلاً: «وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي»، فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون..

لهذا كانت تلازمهم في بعض الأحيان صفات الإدعاء والتعالي التي تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى، وكان بعضهم هدفاً لحملات السيد المسيح تنديداً بما يظهرونه من الثقة والكبرياء.

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التي كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين، وكانوا يثورون على السلطان «الرسمي» حيث كان في الهيكل أو في المراجع الأجنبية، فكانوا ينكرون على الكهان إستبدادهم بالعشائر والمراسم، وينكرون في الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبِّهين بهم محاكاة للحكام والمتسلِّطين

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التي كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها، فلما أمر الملك «أنطيوخس» كاهن الهيكل أن يضحي في مذبحة بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة، وحدث في عهد الرومان أن الوالي «بترونيوس» عجب من عنادهم في مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها فسأل زعماءهم: كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لربه، فقالوا: نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة، وكشفوا رقابهم مستعدين لإثبات ما يقولون..

ومن نقائضهم أن ثورتهم على إستبداد الهيكل ورغبتهم في تعميم الشعائر التي كانت محصورة في المحاريب هي التي دعتهم إلى إقامة هذه الشعائر في البيوت بغير حاجة إلى الكهان المرسومين، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلاً مقدس المراسم.. فكانوا على ميلهم إلى السماحة ومقاومة الإستبداد «الرسمي» أشد من المتشددين.

إلا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التي تتعرض لهذه النقائض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس، أو أقرب إلى تحكيم العقل في مسائل النصوص والتقاليد، فكان الصدوقيون مثلاً يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص، وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير، وقد كان إنكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى إنتظار الخلاص أو إنتظار المسيح المخلص في عالم الروح، غير مقيد بشرط الصولة والصولجان.

وإذا وصف الصدوقيون على الإجمال بأنهم طبقة «الأرستقراطيين» فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم الفريسيون..

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون إلى فريقين: فريق منهما يتبع الحكيم «هلل» الذي قدم إلى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود في معاملة الأجانب، والفريق الآخر يتبع الحكيم «شماي» وهو أقرب إلى التحرج والتضييق ورد الراغبين في دخول الدين من غير اليهود، وكان شعار هلل الإعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة: «إن الزيادة في اللحم زيادة في الدود»، وشريعته في المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهي ألا تصيب أحداً بما تكره أن تصاب به، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل، وأما الحكيم «شماي» فقد كان الإعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق، وروى أنه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله، وأن غيرته على القديم كانت أقوى من إقباله على التجديد والتصرف في تأويل النصوص..

والقول الراجح بين المؤرخين أن معلمي السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة الفريسيين.

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين الطائفتين في العدد كثيراً وتساويها أو تزيد عليها في القوة والأثر هي طائفة الآسين أو الأسينيين - كما يكتبها رواة الأخبار عنها في عصر الميلاد.

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين.

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة.. وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم، لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن «الهيكل» كله في علاقتها بالدين والقومية، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات.

وإسم هذه الطائفة مختلف عليه، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الإسم مأخوذ من كلمة «آسي» بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الآرامية، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية التي تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير.

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد، واقتبست من مدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية، كمذهب فيثاغورث الذي يحرم ذبح الحيوان، ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل..

وكان حراماً عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات، وكانت الرهبانية غالبة عليهم إلا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة..

وكانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات: درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم[1]، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة في الرياضة والتدرب على العبادة والإطلاع على الأسرار، ثم ينقل المريد إلى درجة الواصلين ويقضي فيها سنتين، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس في يده، كناية عن العمل الشاق، ولهم بين

(١) الحلم: العقل:. وبلغ الصبي الحلم: أدرك وبلغ مبالغ الرجال.

المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة، منها الإغتسال، وتلاوة بعض العهود، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة، ويجوز فصل العضو بعد رسمه إذا حنث في يمينه واتفق مائة من الإخوان على إدانته، بل يجوز الحكم عليه بالموت إذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الإيمان..

وهم يتطهرون من الحدث، ويصلون عند الفجر، ويحافظون على الراحة في يوم السبت، ومنهم من لا يستبيح في ذلك اليوم إزالة الضرورات..

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة، والرق عندهم حرام، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية. أما التجارة فهي في مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق، وأخبث منها حمل السلاح للقتال.

والمادة عندهم مصدر الشر كله، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الإتصال بعالم الأرواح، وهو عالم سماوي في أعلى الأثير يرتفع إليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت[1]

وكانوا يتآخون ويصطحبون إثنين إثنين في رحلاتهم، وقلما كانوا يشاهدون في المدن الاهلة بالسكان أو في الأحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وإزجاء الفراغ[2].

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الإستقامة والصلاح، ورائدهم في طلب الرضى من الله هو النبي عاموس الذي كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلي فرقة متطرفة من فرق الآسين، لأنهم يسلكون مسلكهم في التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص، وهم الذين ثاروا

---

(١) القنوت: القيام في الصلاة على الرجلين، والإمساك عن الكلام فيها.

(٢) إزجاء الفراغ: دفعه والخلاص منه.

ونظموا العصابات في السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الإحصاء الذي صدر من «كرينياس» حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة. وحجتهم ان طاعة القيصر من عبادة الأوثان، وان إحصاء الشعب لإعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصري فوق هيكل بيت المقدس ذهب إثنان من الغلاة إليه وإنتزعاه عنوة وأنذر إخوانهما من يعيده إلى مكانه بالموت، وقد ثار هؤلاء في سنة الإحصاء بقيادة يهودا الجليلي ومات هو وأبناؤه وذووه في إبان الثورة، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة في هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث، فكانت تؤثر التقية والمداراة في معاملة الثائرين، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة..

والطائفة السامرية خليط من اليهود والأشوريين كانوا يقيمون في مملكة إسرائيل القديمة، يقال إنهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل إلى فلسطين ليسكنوها في أماكن القبائل اليهودية التي نقبت إلى ما بين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل، ويقال انهم إختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية إلى بلادها مع القبائل المسبية، فوقع من هذا الإختلاط في السكن والنسب إختلاط في العادات والعبادات، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد، فعمد السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم. وقد بقي منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائماً حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة «نيوبوليس» أو نابلس المعروفة اليوم، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها، ولا تعترف بكتاب بعد

الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر الميلاد حتى بطل الأمان في السفر بين السامرة والبلاد الأخرى، وتعرض للإهانة والنكال كل من خاطر بالسفر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال.

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود، ويرجع شأنهم هذا إلى النزاع القديم بين مملكة يهودا في الجنوب ومملكة إسرائيل التي ورثها السامريون، وهم ينسبون إلى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون بإسم «الإسرائيليين».

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهودا في الجنوب أن عاصمتهم- بيت المقدس- هي مقر الملك المنتظر، وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الإعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلجون في عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة الملك في يهودا ويفتحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالخلاص الروحاني والهداية الشعبية ويزعزعون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك، إذا حان الموعد المقدور..

ولم تخل البلاد جميعا- مع هذا- من اناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل وإعتزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران، وإرتفع شأنهم في أعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين[1] للدنيا في بيئات الساسة والكهان، ومن هؤلاء «بانوس» الذي تتلمذ عليه يوسيفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات، وكان هذا الناسك الثائر يعيش في عزلة ويأكل مما يتفق له بغير سعي ولا مسألة، ويكثر من التطهر بالماء والتزكي بالرياضة والتلاوة، وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه في شعائر الإعتزال والإغتسال، وأشهرهم يحيى المغتسل المعروف في الأناجيل بإسم يوحنا المعمدان.

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف «الرسمي»

(١) المغامسين للدنيا: غامس المحارب في القتال: رمى نفسه وسط الحرب.

المعهود... وأما موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو ذاك، ويجتهدون غاية إجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة، وقلما يتيسر النجاح في هذه المهمة. ولا سيما في أوقات القلق والتطلع والتبرم[1] بكل موجود.

كان الهيكل خيمة في عهد البداوة، وكان الشعب يعتقد قديماً ان الله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل في أيام التيه، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبي، وقيل انه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب، وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك في حساب الآخرين حسب تقدير المثقال في المعاملات الرسمية وغير الرسمية، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحاً من الزمن، ثم هدمه البابليون بعد أن قام في مجده أكثر من أربعة قرون، ثم أمر كورش الفارسي بإعادة بنائه في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف إليه، وتم ذلك أو كاد في عصر الميلاد..

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى في الحقيقة الواقعة ويتمكن في الصورة الظاهرة: يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذي بقي لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من إعادة ذلك الملك، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب في عصر الميلاد.

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود، ومن أعمالهم في الهيكل امامة الصلاة والإفتاء في مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية في الأعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أي المولود في بابل) كان

(١) التبرم: السآمة والضجر.

معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين، ولهذا كانوا يقسمونهم إلى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ويقتسمون جميعا في النذور والمرتبات..

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون في تعليم الشعب ولا في إقامة الصلوات، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه هؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين، وكانوا جميعاً من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات، خلافاً للصدوقيين الذين كانوا- كما تقدم- يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء.

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين، وشاع بين الشعب إهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج إلى التعليم والإفتاء على الخصوص وشاع بين الشعب كذلك الإقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم في المعضلات والإقتداء بهم في مسالك الحياة، فأصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص..

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه إسم « السنهدرين » وعدد أعضائه واحد وسبعون عضواً منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشئون العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية.

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب في « السنهدرين » أن يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر

العدد إذ يقول: «فقال الرب لموسى اجمع إلي سبعين رجلا من شيوخ إسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم إلى خيمة الإجتماع فيقفوا هناك معك، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك»..

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين، إلا إشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذي كا في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني بنحو أربعين سنة، وكانت أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على إقرار الحاكم الروماني يبرمها أو ينقضها حين يشاء.

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتظر» لم نكد نرى فيها باعثا إلى الترحيب بتلك البشرى، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين، فهي في موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها ومخايل الأمل في شيوعها وانتشارها، وهي إذا إنتشرت لم يكن إنتشارها في مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء[1] دون غيرهم، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون، لأنهم- آخر الزمان- هم الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب..

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الإشارة إلى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا انفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود: يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب

---

(١) الدهماء: جماعة الناس.

النحل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها..

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت إلى ما يظهر للجهاد في سبيل الدين، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيره أي طليعة، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت، ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع إختلاف الحروف والأوزان.

ولا يشترط في النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذوراً لأجل مسمى، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد طول حياته، ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبي في سن الفتوة، قال النبي عاموس بلسان يهوا إله بني إسرائيل: «وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين... لكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة» والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون..

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري، وهو الموعد الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهي كألف سنة كما جاء في المزامير، وأن عمر الدنيا أسبوع الهي، تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة. فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم، ولا يزال الغربيون يعرفونها بإسم الألفية Mellinnum ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام.

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله

كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة، وكانت بداءة الألف الخامسة موعداً منظوراً أو منذوراً يكثر فيه النذيرون، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه..

والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري وهما في اللفظ العبري متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم، ولكن الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديماً. وانها كانت مرقباً صالحاً للإستطلاع لأن التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف بإسم مرج ابن عمير، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين في اللغة اليونانية، لغة الأناجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللساني فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذورين والنسبة إلى النذيرة، وبخاصة إذا كان إسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين..

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا الذي جعلهم قوة ذات بال في عصر الميلاد خاصة، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود..

الحياة السياسية والاجتماعية

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباي » الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور..

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التي أضافت إلى مجد بومباي وخلدت ذكره بين أبطال الرومان، ولكن هذه العظائم تضفي على الأبطال والدول مجداً لا ينطوي على خير كبير.. فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التي لم يعرف لها مثيل في ثورات العبيد الأقدمين، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر، فلو لم يكن في بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات، ولولا خلل في كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون إلى مجد رومة نظرة الحقد، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به إلى الحضيض..

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول «عبد» شرقي ثائر على الدولة الرومانية، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى الثورة في صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشاً استقر في الجزيرة عشر سنين، وهذه هي الثورة التي تجلى قائدها « أونس » لأتباعه في صورة النبي المرسل وفي شارة الملك المتوج بيد الله، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرقيون.

وقد سبقت ثورة أونس السوري ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف ولم تخل إحداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها، وكانت واحدة منها في آسيا الصغرى تنشيء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزاً إلى عبادة النور والحرية، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون في صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان..

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافياً على المصلحين من ساسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح، فأرادوا إصلاح العيوب الإجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التي تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان، وظن كايوس جراشس Grachus أنه يعالج الآفة بإنشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين، وإضطر هو وأخوه إلى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها، ولكن عوامل الخراب كانت في تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح، فلما حاول يوليوس فيلبس في سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال في خطابه «التفسيري» كما روى شيشرون: «إن ملاك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين».. وإزدادت هذه هذه الحالة سوءاً في عصر أوغسطس المجيد كما يوصف في التواريخ، فآلت المستعمرة الأفريقية إلى قبضة ستة من المتبطلين، وفيها ألوف من الأرقاء المسخَّرين..

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري[1] متى «إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه»

والواقع انه كان عصراً مجيداً بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه: فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين، وألقت رومة بكل إعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سنداً لا غنى عنه، وإنتهت بها الحاجة إلى تلك القوة انها ألقت بنفسها على مذبحها، فباعتها حريتها وكرامتها.. وضيَّعت الجمهورية في سبيل القيصرية المطلقة، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة، فخلعت على القيصر أوعسطس لقب إلّه، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروفاً باسمه إلى اليوم، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم، حتى عز عليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين.

(١) الحواري: الناصر والحميم، وقيل ناصر الأنبياء ومن ذلك قيل لرسل المسيح: الحواريون.

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول، فضاع القانون مع السلطان المطلق، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين: ثروة وترف وطغيان من ناحية، وفقر وضنك وهوان من ناحية، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن في المجتمع، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع إفراط النعيم حتى السأم من الحياة، وإفراط الشقاء حتى النقمة على الحياة، فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذي كسب العالم وضيع نفسه، فضاع وأضاع.

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر إفتتاحها، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة، وانقسم رأي القوم وشعورهم بين الدولتين: منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان، واشتد التناحر بين الفريقين إشتداداً خرج بهم إلى ضراوة الوحشية في مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان في بيت المقدس، وكان أنصار الفرس يرشحون رئاسة الكهنة انتيجونس ابن اورسطبوتس. فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوي العاهات.

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الأدوميين، عرف بفراسته وبعد نظره ان الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان، فانضوى إليها[1] واستبسل في معونتها، فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح، وكافأهم هو بالتمادي في محاكاة المدنية الرومانية، وأوحت إليه حصافته أن يداهن[2] السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية في وقت واحد، فتغالى[3] في الغيرة اليهودية التي كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة، وتغالى في محاكاة الرومان والإغريق بالأزياء والمساكن

(١) انضوى إليها: انضم.

(٢) يداهن: داهن صاحبه: غشه ومانعه وأظهر له غير ما يضمر.

(٣) تغالى: بالغ.

والشارات والأسماء وتكفل بإتمام بناء الهيكل على نفقته.. ثم تكفَّل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومنين» ان صح هذا التعبير، لعلهم يدارون شططه في محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية، كلما احتاج إلى التوفيق بين النقيضين.

ومع هذا الجهد المضني في التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه، وحدث قبيل وفاته ان طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وأنصابه لتمسح منها معالم الوثنية، فعقد لهم محكمة وأمر بأجناده فحملوه إلى المحكمة، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء!.. وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات، قبل إعلان وفاته، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه، فلا يتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه.

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة، فوقعت الجليل- حيث ولد السيد المسيح- في حصة هيرود الثاني انتيباس، ووقعت اليهودية في حصة ارخلاوس، ووقعت مشارف الشام في حصة فيليب، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك إلى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدي القيصر، فهذا الذي يشير إليه السيد المسيح في مثله المشهور كما رواه الحواري لوقا حيث يقول ما فحواه: «كان إنساناً شريف النسب ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفراءهم يقولون: «لا نريده ملكاً علينا..»

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة في ولاياتهم، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشرة وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم في مرضاتها، وتتخذهم جميعاً درعاً تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين.

ومن المتواتر- مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتي بعد- أن السيد المسيح ولد في أعقاب ثورة جائحة[1] إشتعلت في أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا في وجه

(١) جائحة: الجائحة: الشدة، والنازلة العظيمة تجتاح المال. وسنة جائحة: فيها قحط وجدب.

الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام.. وليس الاحصاء بطبيعة الحال سبباً مباشراً لإشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة، ولكنه أشعل نار الثورة فعلاً لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين. إحداهما، مشكلة الاعتراف بملك غير «يهوا» الذي يؤمن الشعب اليهودي انه هو الاله وهو الملك، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليها بالضربات والمحن ولا يغفرها له إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال، فإذا دان اليهودي لملك غير «يهوا» أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان. وقد حسب الشعب الاسرائيلي ان الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فرداً فرداً وتقييدهم عبيداً للقيصر مطالبين بعبادته وإفتتاح الصلوات بإسمه، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهي تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذي لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك في تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث إليه، ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز.. فأرسلوا إليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين: «يا معلم: إنك صادق تعلم بالحق ولا تبالي أحداً لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن؟.. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا يجوز؟..» فكان جوابه المشهور: : «أروني معاملة الجزية!..» ونظر إلى الدينار الروماني فسألهم: «لمن هذه الصورة والكتابة؟..» فلما أجابوه أنها لقيصر قال لهم: «اعطوا إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله..» وأسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية، ولو كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة منهم، وهي التي ثارت عند تقرير الاحصاء العام.

أما المشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الاحصاء فهي مشكلة الضريبة وعسف الجباة في تحصيلها، فقد كان اليهودي يؤدي ضريبتين: احداهما للهيكل، والأخرى للدولة، وقد جاء في الأناجيل ان رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة

من السيد المسيح وتلاميذه، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان: « ما تظن يا سمعان؟.. ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية؟.. من بينهم أم من الأجانب؟.. » قال له التلميذ: « بل من الأجانب.. » فقال السيد المسيح: « إذن فإن البنين أحرار » ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ.

وقد كا أداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء، ولكنه- مع العسف في تحصيل ضريبة الدولة- كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة. فإذا حان الموعد السنوي فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي يسلمونه للملتزم، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي يسلمه لخزانة الدولة، فكان المال المحصل يربى على ضعفي المال المطلوب.

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة إلى الشعب وكان الشعب الاسرائيلي لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزين، ومن ثم كان إنكارهم على السيد المسيح أنه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع إلى مناجاتهم، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالأمانة في الجباية... يسألونه: يا معلم!.. ماذا نفعل؟.. فيقول لهم: لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم، ويقول للجند الذين يصاحبونهم: لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد، وإكتفوا بعلائفكم، لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس!..

فلما صدر الأمر بالإحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفي بما تحصله جملة وتنوي أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من لآحادٍ فرداً فرداً مع الشطط في تحصيل ضرائب الالتزام، فاستجابوا داعي الثورة من الغلاة، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون.

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والأوروبيين أن الحالة السياسية

في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون، ولكنها على إفراطها في السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية في الدلالة على القنوط وعموم البلاء، وحسب القارىء ان يتصفح الأناجيل كائناً ما كا إعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكي تتمثل له حالة البؤس واليأس التي كانت ترين على القرى والمدن في أقاليم فلسطين، ولا سيما اقليم الجليل الذي تواترت الروايات عنه، فحيثما كتب الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون. ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف، وبينهم من يقال عنه ان جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالاً وبعضهم من الشبان والكهول في مختلف الأعمار، وهذا إلى أمراض البرص والنزيف والصرع الذي لا يقترن بالجنون..

وإذا كانت هذه هي الحالات البارزة فإلى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها في الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع وتركته مهيض[١] الأعصاب عرضة للسخط والهياج، ويضاف إلى هذا ان عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأُساة[٢] الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج، وإذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصراً مهيض الأعصاب فنحن نلتفت إلتفاتاً خاصاً إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في جملتها، فليس أحوج من عصر كذلك العصر إلى السكينة وثقة الإيمان وليس أشد منه تعطشا إلى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه إلى الهادي الذي يرجى على يديه التسليم والتطهير، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين..

وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوة، فجعل للتطهير رمزاً من

(١) مهيض الأعصاب: العظم المهيض: المكسور.

(٢) الأُساة: جمع آس وهو الطبيب.

الاغتسال بالماء، وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيرود، فإنها البؤرة التي استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الإخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات، فكانت جسارة النبي على التطهير كفؤا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة، وقضى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في حملته الصراح وحرج من الميدان شهيداً يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبي هدية لراقصة مبذولة الجسد، ولا جرم يكون عصر «يحيى المغتسل» عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد: هجمة من هنا وهجمة من هناك ثم تبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء..

الحياة الدينية

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعمور كله، ما عدا الشرق الأقصى، وأصبح من رعاياها اناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة، فشوهدت في رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند إلى الشواطىء الأطلسية وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم إلى الاسكندرية، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة، وتعود الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية.

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثراً في موضوعنا- عبقرية المسيح- ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجري من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى، خلافاً لما يسبق إلى الظن من غلبة العقائد تبعاً لغلبة القوة السياسية.

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة وأتباعها، وهي التي إنتقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن إستثناء من هذه القاعدة، بل كانت تطبيقاً جديداً لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها.

وليس في الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر إلى الذهن لأول وهلة، فإن سريان العقائد من الشرق إلى الغرب في تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب ولا يعوزها سبب واحد صالح للتعليل..

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقاً للرعايا في وقت واحد، فقد كان القياصرة يطمعون في الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد في الشرق يعلنون حلول الألوهية في أجسام الملوك ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله «آمون» خبرا يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبَّه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه، وجر هذا المطمع الغريب إلى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس- خليفة الاسكندر- يطلب الربوبية وسمى نفسه بالإلهي أو صاحب الشارة الإلهية.

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطاً من الشعوب المختلفة، وسرى هذا الاختلاط إلى الجيوش التي كانوا يسوقونها إلى المشرق ويتركونها فيه زمناً ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الأحيان إتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء في العصمة، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما حدث في عهد الاسكندر- وأن يطلب الربوبية من القياصرة!..

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية، وانه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون إلى بواطن الديانات، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة إلى المجوس، والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم، ولا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب..

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها بإسم السماء!..

لهذا زحفت على العالم الروحاني نحلة «مثرا»، ونحلة «ايزيس»، ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى، ومرجعها هي أيضاً إلى الشرق القديم.

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية في أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب: شوهدت في آثار السور الروماني بالبلاد الانجليزية كما شوهدت في غيرها، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن «مثرا» كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين: أحداهما، صفة النور الذي يبدد الظلام، والحق الذي يمحق الباطل، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كتاب المجوس المعروف بكتاب «الافستا» انه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير أورمزد على إله الشر اهريمان وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره في أعمالهم الليلية، ويعتقدون انه يولد في الجسد الآدمي كما يولد الفقراء في كهف مهجور، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف، وربما حببه إلى العباد ذلك الحنين المعهود في الناس إلى استطلاع الأسرار والطموح الى الترقي في درجات العلم بالمجهول، فقد كانت لعباده درجات سبع يتنقلون فيها من درجة إلى درجة على أيدي الأئمة المختارين، ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سراً أو جهرا على ملاء من الصفوة المقربين، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذي يوضع على اللسان رمزاً إلى حلاوة الايمان.

واقترنت نحلة «ايزيس» المصرية بنحلة «مثرا» الفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان، فسماها اليونان «ديمتر» ونحلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطبيعة الأم، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمزا للأمومة والبر والبراءة، وكان لها كهانها يحلقون رؤوسهم في الغرب، محاكاة للكهنة المصريين، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة وتقديس حقوق الآباء، ولا شك أن المراسم السرية التي تلازم نحلة «ايزيس» كان لها أثرها في تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الأثر في عبادة «مثرا» وما شابهها من العبادات.

وخرجت من مصر أيضاً نحلة قوية على قلة عدد المنتمين إليها، وهي نحلة

المتنطسين Therapeuts التي ذكرها الحكيم الاسكندري اليهودي فيلون، وقال ان أتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك في الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليوناني معناه الاساة أو المتنطسون، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول مريوط القديمة، ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الأسينيين، وأشرنا اليهم في الكلام على فرق اليهود..

ومما يلاحظ ان نحلة «اورفيوس» اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة، ولعلهم كانوا يحسبون «الأسرار الدينية» إختصاصا للشرق القديم ويرجعون إلى اليونان في مسائل الفلسفة والفن والخطابة، وبخاصة بعد أنْ تحولت الديانة «الاورفية» إلى ديانة شرقية تجري على سنة الشرق في التقشف والأخوة الروحية، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية وقيل في وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهي تصغي اليه ثم أصبح التأليف بين الضواري والنعم رمزاً إلى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الأقوياء، وجاء عصر الميلاد والأورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيضاء ولا يذوقون الخمر إلا في مواسم القربان، واحتفظوا بعقيدة اليونان الأقدمين في أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعود منه، وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس اله الربيع، وكثيرا ما قيل في كتب المقابلة بين الأديان أن أتون الاله المصري وأدونيس الاله اليوناني وأدوناي بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة ترجع إلى مصدرها المصري القديم.

ومن الواضح أن هذه النحل التي كانت تصطفي الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها، وإنما كانت في جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي تضم اليها المشتغلين بغرض واحد أو المثقفين في المزاج والعاطفة، وكانت أقرب إلى الجماعات الفنية الرياضية التي تقوم على تخير الأذواق وتوحيد

العلاقات بين الأشباه والنظراء، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون ان هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم في الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير في جو من الألفة وإتفاق المطالب النفسية والفكرية، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية أو فنية فهي عنده بمثابة الأندية التي تصون روادها من الأخلاط و «الأغيار» ولا سيما الاغيار من ذوى الجهالة والإسفاف.

ولكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد انها «أولا» علامة على طلب الاعتقاد وإحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء[1] في جو التقاليد والمعتقدات.

وانها «ثانيا» علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسري في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها.

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخالصة المقصورة على طلابها ومريديها، وكانت على دأبها سادرة في عاداتها ومألوفاتها، ولكنها لم تخل في هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر محافل الأعياد العامة التي تقام لهذا «الرب» أو لتلك «الربة» أو تتردد في مواسم الطبيعة بصبغتها التي كانت تمتزج بالدين على عادة الأقدمين، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه، إذ كانت القاعدة الذهنية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئا أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق في المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة، فذلك

(١) الخواء: الفراغ.

أسلم من التنازع والفتنة والصدام.

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور انها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبينة انفة عن عقائد التقليد، وانها كانت تجرى في مجراها الى «العالمية» التي تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها، وأهم من هذه «العالمية» في النحل والمحافل «عالمية» في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هي لسان «يهوا» الذي يخاطب به الأنبياء ويناجي به الكهان في المحارب، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحى باللغة الآرامية، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد وما بعده، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح والتلاميذ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل، وكانت السريانية هي لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح..

وأهم الظواهر التي تسجل في سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قبيل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت في حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس، فقد روى المؤرخ سويتنوي ان القيصر أغسطس جمع في سنة «١٢ قبل الميلاد» قرابة ألفي قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وأمر بها فأحرقت علانية، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها في صندوقين مذهبين ونقلها إلى معبد الإله أبولون، وفي هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية في ذلك الجيل..

الحيـاة الفكرية

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد ببضعة قرون، وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية والرواقية، وهي التي تعنينا فضلاً عن شهرتها، لأنها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح، وهما الابيقورية والرواقية، فإن هذين المذهبين- على تناقضهما- رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين.

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة وهي: طلب السكينة والراحة، الا أن الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود، وهي جميعاً أقرب إلى النشأة الشرقية، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى..

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في «أخوة» ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعاً عن بعض العادات، وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس انه إبن الإله «ابولون» وأنه لم يمت وسيبعث بعد حين، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح، وأن الروح في الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا

يلتقطوا شيئاً وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا في المرآة إلى جانب النور، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحاً تسكنها إلى حين، وعندهم ان الناس درجات: بشر، وانصاف من بشر وآلهة، وفيثاغوراس أحد هؤلاء.

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء في أخوته ويوجب المشاركة في الأقوات والمقتنيات التي تصل إلى أيدي الجماعة، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت «فرجة» عنده وهي كذلك عند من يشبهونه. فالعالم في رأي الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعاً، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان.

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحي من الله، ويريدون اشتقاق الكلمة ثيوري Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانيـة فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة الإلهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة و «الإنسجام» بينه وبين موسيقى الكون.. اذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الأربعة، ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تخلق منها جميع الأشياء.

وقيل إن لهم أغراضاً سياسية وأنهم كانوا يتآمرون على الدولة في اجتماعاتهم السرية، وقد عاش فيثاغوراس في القرن السادس من الميلاد وساح في بقاع العالم المعمور كله، وبقيت نحلته أو أُخوته في جميع الأقطار، ولا سيما الأقطار التي قام فيها اليونان المستشرقون.

أما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا في عصر واحد، وانتشرتا بين المثقفين في جميع أنحاء العالم المعمور، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما في الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملاً على حسب التفسير والسلوك في المعيشة.

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، وولد على القول

الأشهر في جزيرة ساموس على مقربة من شواطى آسيا الصغرى، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هرباً من الاضطهاد، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو في نحو الرابعة عشرة، وافتتح مدرسته في حديقته المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو في نحو الثلاثين.

واذا قيست فلسفة ابقور على معيشته الشخصية فهي حياة نساك متقشفين، لأنه كان يقضي معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وأفضل السرور ما لم يعقب ألماً ولا ندماً، ولهذا كان يتجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور «المتحرك» وهو السرور الذي يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء، وقد كان يقسم السرور الى نوعين: سرور متحرك، وسرور مستقر أو ساكن، وأفضلها كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعني به سرور التأمل والراحة والقناعة..

وكان ابيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجاً في طلب السرور حيث يوجد بريئاً من الألم والندم، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم «الخير» اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم.

وقد أنحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه لأنها محشوة بالخرافات والأكاذيب، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات إلا في لطافة المادة ونقاوة التركيب، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود... ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها إلى الأسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه في السرور والألم، فإن لم يكن في الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة، ولهذا شاع مذهب ابيقور في عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والإيمان بالعناية، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية- خلافاً للرواقية- لا تعفى أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يثقل على كواهلهم، ولكنها مع هذا

كانت تجمع قواعدها ووصاياها في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التي يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الإيمان والعبادة.

واذا أردنا تلخيص المذهب الرواقي في كلمتين اثنتين، فهاتان الكلمتان هم: الصبر والعفة.

الصبر على الشدائد، والعفة عن الشهوات، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظام متناسق يجري على حسب المشيئة الإلهية، والوحي والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه، ويلتقي الإنسان بالعقل مع الآلهة وبالجسد مع الحيوان الأعجم. وفضيلته الإنسانية هي أن يطيع العقل ويعصي الجسد، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات، وطاعته العقل هي طلب المعرفة، وسعادة الإنسان كلها هي السعادة التي تتهيأ له من الإستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه.

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد، ولكنهم تدرجوا في الروحانية وانتهى خلفاؤهم في عصر الميلاد وما بعده إلى الإيمان بحرية الروح في مواجهة المادة، فالإله الأكبر «زيوس» لا يستطيع أن يجعل الجسد حراً من قيود المادة ولكنه يعطينا قبساً من روحه الإلهية، فنصبح بنعمته اخواناً لا يفرّق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة، وأينما يكونوا فهم مع الله، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد، فإنما القداسة في النفس التي تعبد وليست القداسة في مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد.

ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التي أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠- ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجي زيوس قائلاً: «اهدني يازيوس، أيها القدر. خذ بيدي الى حيث أردت أن ترسلني. خذ بيدي أتبعك غير ناكص ولا وجل فإن خامرني الريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لي ولا نجاة».

ويتبع الرواقي طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى. فإن

الإله الأكبر لا يريد شراً ولا يخلقه، وما هذه الشرور التي في الدنيا إلا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التي تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الإلهية وإنما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الإله في قضائه، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة، فإن الحكيم يحمل في حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء.

وقد أخذ الرواقيون من الهند - بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر - أن العالم ينقضي ويعود في دورات أبدية لا تعرف لها نهاية، وأعتقد بعضهم أن أرواح الحكماء تبقى في كل دورة إلى نهايتها، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية، وهي النار التي تطهّر جميع الموجودات لتخلص من أوشابها[1] ثم تعود دواليك في وجود بعد وجود وعلم بعد عالم وقيامة بعد قيامة.

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولا سيا القطبين الكبيرين في هذه المدرسة زينون (٣٤٠- ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥- ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعاً من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية، وخلاصة مذهب الإمام الرواقي الأكبر- زينون- كما لخصناه في كتابنا عن الله «أن الإله جوهر ذو مادة Soma وان الكون كله هو قوام جوهر الإله، وأن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا، وأن الناموس Nomos - وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthoologos أو الكلمة الحقة- هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد- كما أسلفنا- أن الفلك ينتهي بالحريق وتستكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس، فكلها وما شابهها من الأسماء

(١) أوشابها: اخلاطها.

تدل على موجود واحد، وقد كان هذا الموجود الواحد منفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء، وجرت في الماء مادة الخلق Sparmathos Logos كما تجري مادة التوليد في الأحياء، فبرزت منها مبادىء الأشياء وهي النار والماء والهواء والتراب، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التي تحرك الهيولى، وهي قوة عاقلة، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم. ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال، ولكن هذه التشبيهات ان هي إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية».

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد- بوزيدون الذي أشرنا إليه- كان يعلم تلاميذه ان الروح لا تفنى بفناء الجسد وانها ترتقي صعداً في السماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة.. فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض، ومنها ما يحلق بين الأفلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر إليها والاستماع إلى ألحانها في مسراها إلى يوم القيامة، وقد كان هذا الحكيم معنياً بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنياً بها في بحوثه الفكرية الدينية، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب «الرواقيون والشكوكيون» Stoics & Sceptics أن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً، ويقال إن هذا التقدير كان في حساب كولمبس عندما قصد إلى الهند من طريق البحار الغربية.

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني إلى أقصى أطرافه، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور امامه الأول- زينون- بنحو أربعة قرون، فكان من أئمته العبد الرقيق أبيكتيس (٦٠- ١٠٠ بعد الميلاد) والإمبراطور الكبير أورليوس (١٢١- ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتاء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه..

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الأبيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الإسرائيلية كأنها زيان من أزياء الثقافة التي يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية، فكان الصدوقيون يميلون إلى الأبيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها، تمشيا مع نزعتهم إلى التجديد..

ومن المصادفات التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الإسرائيلي أن عصر الميلاد أنجب أكبر فلاسفة الإسرائيليين في العصر القديم وهو يهودا فيلون، الذي ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج في فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الاغريقية الاسكندرية، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها في الزمن القديم، وقال إنها هي واسطة الله في علاقته بهذا العالم وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس، وعبادة أوزيريس سرابيس التي تأسست بالاسكندرية وتفرعت في أثينا وبومبي ورومة وبعض الموانى الآسيوية، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحاً عقلياً يخالف في كثير من المسائل شروحها التقليدية، وقال في كلامه عن خلق العالم أن موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التي تحيط بها الألغاز والزيادات، وانه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وأن النظام مطابق للدنيا، وان الإنسان الذي يتبع النظام، مواطن صالح للعالم كله، يسير في عمله وفقاً لمشيئة الطبيعة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لمشيئتها.

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية، فقال في كلامه عن ابراهيم مفسراً أسم إسحاق: «إن معنى أسحاق في لغتنا الضاحك. ولكن الضحك هنا غير الضحك الذي يأتي من سرور الجسد، فهو سرور المعرفة الصالحة، وهذا هو

الفرح. هذا الفرح الذي روى لنا أن الحكيم ابراهام قدمه قربانا إلى الله مبيناً بذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده اذ الإنسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله ».

ومذهب فيلون في الصلاة أن الإنسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعاً رجالاً ونساء ويونانا وبرابرة ومنها ذات المصلي جسداً وروحاً ومنطقاً وعقلاً وحساً، فإن الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب.

وينقسم الإنسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام: وليد الأرض، ووليد السماء، ووليد الله، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر،ووليد الله من تجرَّد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة، في زمرة الهداة والمرسلين.

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئاً وإنما الخير كله من الله حيث كان، وهو كائن في كل مكان، يهدي ركاب الروح إلى حيث يشاء.

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة: « إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شيء ومعطي الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر، بل من تقدم إليه بنفسه لا يحتقب[1] شيئاً غير الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال ».

وقد كان فيلون عالمياً يخاطب بني الإنسان كافة.. وكان يقول: إن إسرائيل إنما سمي بهذا الإسم لأنه ينظر إلى الله، فكل ناظر إلى الله إسرائيل، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية، ولم ينس قط في كلامه عن بني إسرائيل أنهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الإنسان بإعجاب

(١) يحتقب: يدخر.

جميع العشائر فإن الأثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الأثينيين، ولم يعهد في المصريين إنهم يأخذون بتقاليد السيثيين أو في السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا، وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة، لكن اليوم السابع الذي يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر في عرف الإغريق، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالإفراط في الشراب والطعام وشهوات الأجسام، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بني إسرائيل.

يقول هذا عن قومه، في كلامه عن حياة موسى عليه السلام، لكنه يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة أن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء، لا يأخذ بناصرهم أحد اذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر، وذنبهم عند الناس إنهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون في المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض إلى النفوس «ومع هذا يقول لنا موسى أن يُتمْ إسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبّر الكون الذي وقعت إسرائيل من نصيبه وفُرِزت من العالم كما تُفرز بواكير الثار هدية للخالق والأب الرحيم».

تلك غاية الشوط الذي انتهى إليه فيلون في زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوي الأتباع في الديانة الموسوية، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في أوائل عصر الميلاد.

الفصل الثالث

تاريخ الميلاد

- أرض الجليل
- متى ولد المسيح؟
- صورة وصفية

أرض الجليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل- أو جليل الأمم- كما كان يسميها الاسرائيليون، لأنها كانت اقليما مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة، يعنون بها الإحاطة، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب..

وكانت الجليل جزءا من أقاليم الشاطى الشمالية التي عرفت في التاريخ القديم بإسم كنعان، ثم أطلق عليها اليونان أسم «فينيقية» من اللون الأحمر على ما يظهر، وهو لون الصخور والجبال

وقد امتازت كنعان قديماً بالموانى الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق واشتهرت في هذه الموانى صيدا وصور وحيفا، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور، لأن الشواطىء الجنوبية خلت في الزمن القديم من الموانىء الصالحة، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء وهي يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية، ولا سيما المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة، حتي تواتر أن تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوربية..

وقد دخل بعض بلاد الجليل- أو كنعان- في مملكة داود بعد انشائها، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم

تكن علاقة حرب وعداء، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم في الصناعة والتجارة، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في تشييد الهياكل والقصور اليهودية، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسل إلى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل، ويقول له: «انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين». [1] ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صدر وأمه من سبط نفتالي، وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل في النحاس.

وقد جاء في الإصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتّجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى..

واعتمد اليهود على الكنعانيين في شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقائد الكنعانيين، وإلى ذلك يشير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول: «وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا إلّه آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر» وإلى ذلك أيضاً يشير العهد القديم في سفر الملوك الأول حيث يقول النبي ايليا: «إن إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك» إلى أن يقول: «وقد أبقيت في اسرائيل سبعة آلف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله».

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم أبناء اليهودية نظرتهم إلى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم، وكان الواقع أن أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية، أو باليونانية، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى، واقتبسوا كثيراً من مأثورات الفرس والهند والعراق، لأنهم كانوا يلتقون

(١) الاصحاح السابع في الملوك الأول

بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية، ويرجح بعض المؤرخين ان الفينيقيين الأقدمين جميعاً كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطئ بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية..

وبلغ من بغض أهل اليهودية لأبناء ملّتهم في الشمال ان « حنا هيركانوس » المكابي أغار على الأقاليم الشمالية، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الجليل، فأعاد من فيها من اليهود إلى الجنوب وخيَّر المقيمين في الشمال بين الهجرة أو قبول الختان وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم أو من البلاد التي استوطنوها منذ زمن طويل، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم، ولبث أهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب.

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيراً في روايات التاريخ أن جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عرباً يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميِّزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضاً على غير روية، وكذلك عرف الحواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين.

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم: « انه لا خير يأتي من الجليل » وفي إنجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه: « اننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسى » وانه من الناصرة في الجليل، فأجابه مستغرباً: « أمن الناصرة يجي شيء صالح؟ »[١]..

وفي إنجيل يوحنا أيضاً يروي عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين: « إنه لم يقم نبي قط من الجليل »[٢].

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله في نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج، ولكن هذا السبب بعينه هو الذي جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة

---

(١) الاصحاح الأول

(٢) الاصحاح السابع

الانسانية التي ترقبها العالم في ذلك العصر ، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الإخاء بين الأمم في كنف الحجر والجمود.

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير، وانها دخلت هي والبادية المجاورة لها في نصيب إبنه هيرود انتيباس.. وربما كان عليه السلام في العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام، ولا شك انه في نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التي تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها، وقد كانت مشكلة التعصب أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الروماني طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق المرائى وشهد العبث من ذوي السياسة والامارة قبل الأوان، وأدرك ان العواصم تهدم وتبنى، وان الدول تدول، وان الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى، وان مجد الرياء زيف وخواء، فسبحت نفسه البريئة في آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكي ملكوت السماء في صورة غير هذه الصورة، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام..

متى ولد المسيح

يفهم من رقم التقويم الميلادي أن المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهي السنة التي دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير Exigus إلى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن.

ولم يكن الرجل صغيراً في مكانته الدينية، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه فلم يسلم من الخطأ في حساب بضع سنوات، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم الذي يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة، واعتبروا أن السيد المسيح ولد في سنة أربعة آلاف بحساب ذلك التقويم..

أما القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات، وانه على أصح التقديرات لم يولد في السنة الأولى للميلاد..

ففي انجيل متى انه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

وقد جاء في انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومه، ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات.

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب- أي الاحصاء- في كل المسكونة، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى اذ كان كيرنيوس والياً على سورية «فذهب الجميع ليكتتبوا كل في مدينته، وصعد يوسف... من مدينة الناصرة إلى اليهودية... ليكتتب مع مريم أمرأته المخطوبة وهي حبلى، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر».

والمقصود بالاكتتاب هنا- على ما هو ظاهر- أمر الاحصاء الذي أشار إليه المؤرخ يوسفوس وأرّخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة، فيكون السيد المسيح اذن قد وُلد في نحو السنة السابعة للميلاد، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين، فإن الكاهن اللاوي عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين، وكان الأخبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والإفتاء في مسائل الفقه الكبرى، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعي أنه يرى ابراهيم ويستمع إليه، ولو انه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين.

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الإحصاء المشار إليه هو الاحصاء الذي ذكره ترتليان Tertullian وقال أنه جرى في عهد ساتورنينس Saturninus وإلى سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد، فإذا كان هذا هو الإحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد..

ومن القرائن التي لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذي قيل إن كهّان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به إلى المكان الذي ولد فيه السيد المسيح..

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم، وانهم كانوا في عصر الميلاد يرقبون حادثاً جللا في التاريخ البشرى حوالي سنة الميلاد، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المرتقب من حين إلى حين، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة

والتفاؤل، وفي داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الإلهية، ويكفي أن نذكر بقايا هذه العادة في البقعة الفينيقية إلى ما بعد أيام المعري لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت في الزمن القديم، وقد كان المعري الضرير يعني نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة في لزومياته:

قران المشتري زحلا يرجى	لإيقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية في ضلال	وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا	قبائل ثم أضحت في ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل	وخلقت النجوم كما تراها

لقد كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد في البقعة الفينيقية إلى أيام المعري فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الأرصاد كل الإهمال لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه.

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الأفلاك، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي رصدوه، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات..

وقد ذكر فردريك فرار في كتابه «حياة المسيح»[١] أن الفلكي الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل سنة ٧٤٧ رومانية، ويقول فرار في وصف هذه الظاهرة: «إن قران المشترى وزحل يقع في المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتي سنة، ولا يعود إلى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله إلا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر وإثني عشر يوماً، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له ان القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في مثلث النونين أو الحوتين وان المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية..

ويظهر من هذا الحساب ان تاريخ الميلاد يضاهي التاريخ الذي يستخلص

(١) الجزء الاول ص ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل

من التقديرات الأخرى على وجه التقريب، وان السيد المسيح ولد في نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد.

ونعود فنقول إن اثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك.. وكل ما يفهم، ولا يجوز أن يهمل، ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور، ولعل الأناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكي من قبيل ذلك القران في حكم القيصر هادريان، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الرباني عقيبة ليدحض دعوى المسحيين، وسماه ابن الكوكب «باركوكبه بالعبرية» ونقش على العملة التي سكها صورة كوكب، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك الظاهرة الفلكية النادرة، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة.

على أن الدراسات الأخيرة في علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتماً إلى بحث عويص أدق جداً من المبحث الذي يدور حول السنة الميلادية، فإن القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام: شكوا في بوذا كما شكوا في ابراهيم وموسى وعيسى. وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين، فشكوا في شخصية هوميروس وفي شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة في التاريخ وأنها وجدت فعلاً ولكنها لم تصنع ما نسبوه إليها، ولم تكتب ما ينشر بأسمائها..

وقد زار فولتير- إمام الشاكّين- بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة في شبهاتها عن وجود السيد المسيح، وكان نابليون يسأل العالم الالماني ويلاند: «هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وجد كما وصفوه؟» وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينيـة موجات من الكتب التي ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفنِّدون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال، وليس من المستطاع في هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو

مجملة في هذا الموضوع، فإن أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقوها وخلاصة البراهين التي شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتاباً كهذا الكتاب، ولكننا نجتزىء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح، وأحدهما انه عليه السلام لم يذكر في التواريخ القديمة التي فصلت أخبار عصره والآخر ان روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض..

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاسيتس Tacitus وسوتينوس Suctonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه.

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة إلى «عيسى القديس» ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة إليه، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث في ذلك العصر فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: «انه في ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس- ان جاز أن يسمى انساناً- بعد ما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به، واتبعه كثير من اليهود والاغريق، وكان هو المسيح».

قالوا: «إن يوسفوس اليهودي الذي مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن إيمان المسيحيين، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة سطور جاءت عرضاً بغير تعقيب أو تفصيل».

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذي ألف كتابه «مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦[١].

---

(١) Introduction to The critical study and Knowledge of The holy scriptures

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية، وان العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلبنان، وإن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والإغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسفوس قد أشار في موضع آخر إلى جميس اسقف أورشليم حيث قال: «إن حنانا عقد السنهدرين اليهودي وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة».

قال هورن: «ولو أن أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلفاً لها لما عدم ناقداً يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية، بل كان من الراجح جداً أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيداً له وتفنيداً للديانة التي يدعيها».

وألم هورن إلى الشكوك التي تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسبياس، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب التوراة..

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم وأن يكون المؤرخ اليهودي مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر، ولعله سماه «المسيح» رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحاً ويعرفونه بشهرته الغالبة..

أما المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية، ولم يذكره مباشرة بل أشار إلى اسمه في سياق الكلام على حريق رومه حيث قال: «إن الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون إلى المسيح

الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت في عهد القيصر طيبريوس ».

ولا يعرف الآن علام استند تابيتس في رواية هذه النسبة، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح ولكنه قال في تاريخه لقيصر كلوديس: « انه نفى من رومه جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لأن الأسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب، وكريستس بمعنى المسيح..

وأيا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد، وانه كان يحسب ان الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ.

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذي سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبري الذي عاش في الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب قومه من عهد موسى إلى نهاية القرن الأول للميلاد، ولم ترد في تاريخه إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى الدعوة المسيحية.

تلك خلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية في عصرها.

أما الحجة الأخرى وهي حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب في العبادات الشرقية القديمة، فهي تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر في ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق في لغاتها، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثنى عشر » الذي يشير إلى البروج ويشير إلى عدد التلاميذ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد في يوم الاعتدال الخريفي على حساب الأقدمين، والاحتفال بيوم الأحد الذي اعتقدوا قديماً انه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم في اللغات الأوربية بهذه النسبة، وذلك عدا المشابهة في إسم الأم والولادة في

المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات.

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولاً لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد.. فإن التفسيرات التي فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية، ولا يكفي إن يقال أن أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه، وقد توفي بولس الرسول في نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التي ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديماً أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين.

وكل ما يُفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر بأسم خاص في الأناجيل جميعاً غير ثلاث مرات، فذكر أتباع السيد المسيح بأسم المسيحيين في الإصلاح الحادي عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة في مدينة « انطاكية » ثم جاء في الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريپاس انه قال محتجاً: « أهون بما تقنعني به أن أصير مسيحياً » وجاء في الاصحاح الرابع من رسالة بطرس: « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم... ان أحدكم لا يتألم لأنه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول، فإن تألم لأنه مسيحي فلا تخجل ».

وجملة ما يؤخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة انها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحيين.. وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن في غمار التواريخ، وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين،

وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار!

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد- علم المقابلة بين الأديان- هي التي دفعت أصحابها في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فإننا نرى أمامنا في هذا العصر ان هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت، بل لعلها إلى الإثبات أقرب منها إلى النفي على الاجمال.

نحن نرى في هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين، لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد أن وليا واحداً هو الجدير بإتيانها وهو الولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء.

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضاف إليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علماً لتلك الصفة في كل ما يروى عنها وينسب إليه، فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم بغير سند، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها..

وينبغي أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد، وان المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائناً ما كان، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم. وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد في تاريخ من التواريخ، ثم اختلفت الكنائس. فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي تتخذه عيداً للشمس، وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام، لأن الاعتدال الخريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار..

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد في طرسوس وهي مركز من مراكز الديانة المثرية، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها،

وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيراً لإقناع أتباعها بالدعوة الجديدة، فلم يزل من سياسة التبشير في جميع الدعوات أن تيسر في هذا الباب ما يستطاع تيسيره، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون، اذ نقل الراهب بيد Bede في تاريخ الكنيسة الانجليزية خطاباً لغريغورى الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوي مليتس Mellitus الذي كان ينهي عن هدم المعابد الوثنية ويرى الإبقاء عليها «وتحويلها من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق، كي يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التي تعود ارتيادها»[١].

ولا خلاف في تكرار العدد «اثني عشر» في كثير من الديانات، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية، وقد كان خليقاً بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة، اذ أقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ «القياصرة الإثني عشر» وكلهم من «الشخصيات التاريخية».

وفي تاريخ الإسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لأثني عشر إماماً معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه انه شخصية غير تاريخية..

على ان النقاد الذين شكوا في وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك في وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا في السيد المسيح انه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها، ولم يصل إلى علم هؤلاء النقاد ان إسم يوشع بن نون وجد منقوشاً على حجر عند «نوميديا» بشمال افريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم «قارة حداشة» التي عرفت فيما بعد بإسم قرطاجة، وعلى ذلك الحجر الذي كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها: «إننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون»[٢]... وليس كاتبو هذا الكلام عن النبي

---

(١) كتاب Paganism into Christianity in The Roman Empire by Hyde

(٢) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Chamber's papers

الإسرائيلي ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه..

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهداً قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية، فمتى حدث في تاريخ الأديان أن أشتاتاً مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى؟.. ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة في هذه الدعوة؟.. وأي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد؟.. وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد؟.. ولماذا كان يخفي مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا منسوبة للسيد المسيح؟..

ان استخدام المقارنات والمقابلات في تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخي الأديان من كل ما جمعوه أو فرّقوه لينتهوا به إلى فرض منقطع النظير..

على ان صناعة النقد التاريخي تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروي في تقرير «شخصية القائل» وتحقيق مكانه من التاريخ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبئنا في هذه الناحية عن كثير..

فمهما يكن من فضل القول في استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقاً لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية، ولم يكن لها محل في رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين.

فإن روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهايتها، ومن التطور المعقول أن تبتدئ الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهي انسانية عالمية، وأن تبتدي في تحفظ ومحافظة ثم تنتهي إلى الشك بالثقة والمخالفة، وأن تبتدى بقليل من الثقة في شخصية الداعي ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع والأشياع، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن

يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم إلى معنى تلك الأحوال.

وربما كان أوضح من هذا في الإبانة عن شخصية الداعي أن أقواله تتضمن نقداً لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره، وان هذه الأقوال تشير إلى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية..

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين.

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الإباحيين والمتحللين.

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين..

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتاً ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود.

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ولكنها لا تنتقد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدي بها اقتداء التابع للمتبوع.

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها إلى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصي مرسوم، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع، لأن التناسق الذي يجري مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة، ولا سيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت.

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الأكبر في الإبانة عن شخصية السيد المسيح، وأصدق تلك العلامات، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت في إبانها وفاقاً لمطالب زمانها، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون، ولو أن مؤلفاً بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولاً يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبع..

صورة وصفيّة

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم رواتها أنها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها إلى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد، وجاء فيها: «أنه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله وكان للرجل سمت [1] نبيل وقوام بين الإعتدال، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معاً، فيحبه من يراه ويخشاه.. شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماع، وجبينه صلت [2] ناعم، وليس في وجهه شية، [3] غير أنه مشرب بنضرة متوردة، وسيماه كلها صدق ورحمة، وليس في فمه ولا أنفه ما يُعاب، وعيناهُ زرقاوان تلمعان.. مخيف إذا لام أو أنَّب، وديع محبب إذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك، ورآه الكثيرون يبكي، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال»

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي اسنادها التاريخية، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى، قول بعضهم انه كان قميئاً [4] أحدب دميم الصورة. فان الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من

(١) سمت: السمت: الهيئة.

(٢) صلت: الجبين الصلت: الواسع الواضح.

(٣) شيه: كل لون يخالف لون الفرس وغيره.

(٤) قميئا: قبيحاً.

يعيبه نقص أو تشويه، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معاً، وأن يخلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره من الإشارة إلى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية

نعم إن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة، ولكن إتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون إليه ليشفيهم من الشوهة والآفة.

وليس في الأناجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح تصريحاً أو تلميحاً يُفهم من بين السطور ولكن يُؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة أنه رائع المنظر ملكي الشارة، إذ قال له: «أنت إبن الله. أنت ملك إسرائيل»... وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته، ولكنها على أية حال تحية لا تقال للأحدب ولا للدميم المشنوء..[1]

غير أننا نفهم من أثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه، وذلك الذي قيل عنه غير مرة انهم أخذتهم كلماته، لأنه «يتكلم بسلطان» وليس كما يتكلم الكتبة والكهان.

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الإستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض أو مكابرة، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة، لأن وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل إرسالاً على غير نسق، ويغلب عليه إيقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس[2] في المقابلة بين الشطور.

وذوق الجمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره، والتفاته الدائم إلى الأزهار والكروم والحدائق التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والإعجاب بمحاسن الطبيعة، وكثيراً ما كان يرتاد

---

(١) المشنوء: المكروه.

(٢) الجرس: الصوت الخفي.

المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضي سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء..

وقد أطبقت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النساء، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون[1] أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء. ولكن الرجل العظيم الذي يجتذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة، أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم، وهو الذي من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط[2] الظنون..

لهذا لا نستغرب أن يقال أن قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الإنسان الصالح، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة، ومنهن الغواني اللواتي تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع.

وقد وصف نفسه بأنه «وديع متواضع الفؤاد» وقال إن الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء، وتمثلت الوداعة في كثير من أقواله وأفعاله، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين، وهي الرحمة التي تبلغ الغاية حين تأتي من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر[3] اللحم والدم، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق

---

(١) يلعجون: يؤلمون ويحرقون.

(٢) مناط: ما تعلق به الأشياء.

(٣) أواصر: جمع آصرة وهي الرابطة.

الآباء والأمهات.. «مَن هي أمي ومَن هم أخوتي؟.. من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي».. من ليس معي فهو علي ومن لا يجمع معي فهو يفرق».. «وإن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وامه وأمرأته وأولاده وإخوته. حتى نفسه، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً»

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها على مريديه هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذي لا خلاف عليه ان التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التي يتأدب بها الجنود في كل ملحمة: جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال..

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على المخاطر في سبيل الحق والهداية، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الإقدام على الموت وجوباً لا مثنوية فيه، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد، وهان موت الجسد إذا كان موت الروح في الحسبان، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير في المخاطرة... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات.

وفي إنجيل مرقس ان السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لإهلاكه، وفي سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبثه [1] حين أحدق به الخطر، وأنه كان يقول لتلاميذه: «نفسي جد حزينة... إمكثوا ها هنا واسهروا معي» ... وأنه كان يعتب عليهم حين يراهم نياماً على مقربة منه وهو يعاني برحاءه [2] وأشجانه ويقول لهم: ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟... ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء: الآن ناموا واستريحوا!.. فليس الإقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها في وجه المخاوف والمتالف، وليس محظوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين، وإنما

(١) بثه: البث: الغم الشديد.

(٢) برحاءه: شدة الأذى والمشقة.

المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح، وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام

ومن تحصيل الحاصل أن يقال أن السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية، وهذه الرياضة الروحية هي التي تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب في أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الإقتراب أو الإبتعاد من طريقهم إلى الله. فهم يشرفون على النور حيناً ويحتجبون عنه حيناً ويعودون إلى طواياهم في كل حين يحاسبونها على إشراقه أو احتجابه، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والإنحراف عن السواء، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والإستقرار وتتخذ العدة لليقين والإيمان

لا ريب أن هذه الرياضة هي التي عناها كتّاب الأناجيل بفترة التجربة في البرية حيث تعيش الشياطين، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الإقدام والإحجام، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغي التسليم بالثقة، رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء، ولكن من لك أيها الضمير، إنك أنت المختار لرسالة الله؟... أو تطلب البرهان؟... فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الإيمان..؟

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم، ونحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع، وكان يستلهم الحوادث إرادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الإرادة، فيترك الحوادث تمضي ويمضي معها وينتظر ما تحكم به المقادير، وفي هذه المواقف يخيفه في أعماق طويته أن يطلب البرهان الإلهي لأنه لا يريد أن يجرب إلهه، ويخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالإحجام مخافة العواقب، فذاك مسعاه إلى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين: مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الأصحاب

ودسيسة الأصدقاء

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الإستلهام والإستطلاع، خيراً من طلب البرهان وخيراً من النكوص ما لم يكن هنالك برهان، وما قال قائل في أمثال تلك المواقف، ليفعل الله ما يشاء، إلا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجري بها مشيئة الله..

في لحظات كهذه اللحظات يغوص الإنسان كله في أعماق ضميره، ولعل لحظة من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون إليه أنه غائب عن نفسه، أو هي التي صمت فيها لا يحير[1] جواباً لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب، أو هي التي أقدم فيها لا يبالي بسلامته وعاقبة أمره، ولم يكن فكره قاصراً عن استطلاع العواقب جميعاً في موقف من تلك المواقف الحاسمة، ولكن المشكلة الكبرى كلها في استطلاع العواقب، فهل تراه لا يقدم على العواقب إلا بضمان من البرهان؟..

إن أعمال أصحاب الرسالات لا تُفهم على حقيقتها ما لم تُفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل وهي أن الشك أخوف ما يخافونه، وأن إستبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وكثيراً ما يقدمون على جسام الأمور لأن التسليم أقرب إلى الإيمان، ولأن الإحجام شك أو إنتظار برهان، والشك وإنتظار البرهان يستويان في بعض الأحيان

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل إلى الله في أخريات رسالته قائلاً: « اللهم جنبني هذه الكأس. لكن كما تريد أنت لا كما أريد »..

وفي هذا الإبتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه إياها كما أراد، وموضع الشبهة في نفسه الشريفة أن السلامة هي ما يريده، وأن النكول[2] هو طريقه إلى إجتناب الكأس، فليكن مسيره اذن في غير هذه الطريق، وليكن التسليم هو طريق الأمان.

---

(١) يحير جواباً: أحار الجواب: رده.

(٢) النكول: نكل الرجل عن اليمين: نكص، وعن العدو: هابه وجبن.

الفصل الرابع

الدعوة

- اختيار القبلة
- تجارب الدعوة
- الشريعة
- شريعة الحب
- آداب حياة
- ملكوت السماوات

الـــدعوة

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التي لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها، ونعني بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية في الحوادث الانسانية الكبرى، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا الا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة، بل هي من أقوى الظواهر التي تؤيدها وتسري في مسراها، وسنرى بعد الإحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين، وان العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد، وسنرى غير مرة في هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت في إبانها وفاقا لمطالب زمانها..

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدي بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة

فما هي آفة العصر التي برزت في التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين؟..

كانت له آفتان بارزتان: احداهما تحجُّر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة في بقعة واحدة من العالم المعمور، وعلى الخصوص تلك الأقاليم التي نسميها اليوم بالشرق الأدنى

تحجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر على كل شيء، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب، فكل معنى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج أو من النفس الى الجسد، كما يحدث دائما في أعقاب الحضارات، تبدأ في عالم الفكر

والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال..

تجمعت الثروة والكسل في ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق في ناحية أخرى.. فغرق السادة في الترف، وغرق العبيد والأرقاء في الشقاء، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية، وتحجرت معه الشرائع والقوانين، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها في يدي عدالة معصوبة العينين، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان!..

وتحجرت العقائد الوثنية في الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بني اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يفيم الحرب الحامية على قدم وساق، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها، فلا خلاف بينهم في طلب المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل

أشكال وقشور، ولا جوهر هناك ولا لباب

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة، وبلغ الحس بسوئها غايته، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون في نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد، فلا فكاك منه بحال

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة، ومن وراء ذلك باطن هواء، وضمير خواء، فلا جرم يكون خلاصها في عقيدة لا تؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة الضمير، ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل

عقيدة قوامها ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه، وان ملكوت السماء في الضمير وليس في القصور والعروش، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب

هل كانت للدنيا آفة غير آفة التناحر على المظاهر؟..

وهل كانت لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص؟..

وهل كانت المسيحية الا العقيدة التي تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها في غيره خلاص؟..

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم

الروماني سيد العالم بحقه، والاسرائيلي سيد العالم بحق إلّهه، واليوناني والآسيوي والمصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل والألم والجوع، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتعمُّها البغضاء

ويأتي الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بني الانسان وانه هو ابن الانسان، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء، وان الكرم أن تعطي من يسألك وأكرمه أن تعطي فوق ما تُسأل وأن تُعطي بغير سؤال، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال، وان ما لقيصر، لقيصر، وما لله لله، وان المجد الذي يتنازعه طلابه لا يستحق أن يُطلب، وان المجد الذي يستحق أن يطلب لا موضوع فيه لنزاع

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار: أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئا لا يعرفونه ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطلق، وان حالهم لا بد لها من تحويل..

أفلست العبادات، وجاء أحد المعبودين - قيصر رومة- فأحرق الأسفار والنبوءات، ولم يبق منها إلا ما هو الى الفن في محراب ابولون إله الفنون..

أما العبادة التي لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة[1] منتظرة.. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجحدها المنكر، وانما هو خلاف على العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت في أوانها لم تتقدم ولم تتأخر،

---

(١) نسيئة: تأجيل.

وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم، فجاءهم الرجاء الذي يصلح لذلك البلاء: بشارة لا تبالي أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير..

وهذه هي دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذي سيقت اليه، ولو لم تكن هي طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضي عليها أربعة قرون..

وهذه الدعوة لقيت أشد ما يلقاه دين من مقاومة... فلا يفهم من هذا انها شاعت في العالم الانساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها، فانما الدين المطلوب هو الدين الذي تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه، وليس هو الذي يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غني عمن يدعو اليه، وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن الدعاة

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة، لأن الذي يدعو الى الأخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء، والذي يدعو الى السلام يدعو الى تحطيم سلاح الأقوياء، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهيِّن، وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة[1] حالم وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق

لهذا كان يقول: «جئت لألقي على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم»..

وكان يسأل تلاميذه وسامعيه: «أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاما؟» ثم يبادر فيقول: «كلا!.. وانما هو الصدام والانقسام، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة: ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة»

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بني اسرائيل كما قال ميخا: «ما في الناس من مستقيم، كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك، لا تأتمنوا صاحبا، لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك، ان الابن بأبيه

---

(١) علالة: بضم العين: ما يتعلل به أي يتخذ حجة وعذرا.

مستهين، وان البنت على أمها ثائرة... والكنة على الحماة، وللانسان من أهل بيته أعداء ».

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير، ومن البغضاء في سبيل الإخاء، ومن الحرب سعيا الى السلام

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة الى الإخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء..

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عبده في طلب ضيوفه « فقال هذا اني اشتريت حقلا، وعلي أن أخرج فأنظره، وقال ذاك: اني اشتريت أزواجا من البقر وسأمضي لأجربها... فغضب السيد وقال لعبده: « اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات إليّ من تراه من المساكين ». فعاد العبد وقال لسيده: « قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان ». قال السيد: « فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »..

ويمكن أن يقال في وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التي ينظر بها القارىء الى كلام المسيح في الأناجيل

يمكن أن يقال انها دعوة الى حين ينتهي وشيكا بانتهاء العالم كله في أمد قريب، ويمكن أن يقال انها دعوة من يدوم ولا يعرف له انتهاء

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله إذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة، ولا سبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين، فلن يخدم أحد سيدين

قبلة الروح أو قبلة الجسد

قبلة الله « مأمون »[1] اله المادة والمال

---

(١) كلمة ارامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية.ـ وتطلق الآن في اللغات الاوروبية على اله المادة والمال.

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب
هنا أو هناك...

فالمهم هو الاتجاه أين يكون، والى أي أمد يدوم، وكل ما يلي ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه، ولا بد من المفترق الحاسم بين القِبلتين، ولا بد من خيرة بين السيدين!..

اختيار القبلة

كان الموقف – كما قدمنا – على مفترق الطريق، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته، ويحسب لها كل حسابها، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعبده.. فليس في مقدوره أن يعبد ربّين، وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيّدين..

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها، ويزول اللبس عنها، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والأضداد، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم

اذا كان الجيل مقبلا على محراب « مامون » بقلبه وقالبه، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب

ان عبّاد « مامون » غارقون في هموم الحطام، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام، فالذي يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا انقاض لأركانه وأوثانه، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان

أو كما قال لهم الرسول البشير: « الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس... وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل، وسليمان في كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها، فاذا كان العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويطرح غدا في التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلي الإيمان...

« نعم .. واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى.. أطلبوا كنوزا لا تنفد في سماواتها حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس »

من استدبر قبلة « مامون » فهذه هي القبلة التي يتجه اليها، وهذه هي غايتها القصوى، وان لم تكن هي كل خطوة في الطريق

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول:

« ما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وامرأته وبنيه واخوته، بل يبغضُ نفسه

«وما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي »

قال هذا هو القائل.

« أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا الى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يسيئون اليكم، من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الأيسر، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك، وكل من سألكَ فاعطه، ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم، وأي فضل لكم ان أحببتم الذين يحبونكم؟ أن الخطاة ليحبّون من يحبهم.. وأي فضل لكم ان أقرضتم من يردُّون قرضكم؟ ان الخطاة ليقرضون من يقرضهم، بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم... »

وقائل هذا هو القائل:

« ان أخطأ أخوك فوبِّخه، وأن تاب فاغفر له، وان أخطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته »

وهذا نقيض ذاك..

هذه الرحمة التي تعمُّ الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس الى الناس: الآباء والأمهات والأبناء وذوي الرحم والقربى

انهما تتناقضان غاية التناقض إلا على وجه واحد، وهو توجيه النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التي تستدبرها..

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضي هنا أو هناك، فلا جناح[1] عليك أن تمضي حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك..

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار

(١) جناح: بضم الجيم: الاثم والميل.

واستقاموا معه حيث استقام، فليس عن هذا يجري الحديث ولا في هذا موضع للنصيحة أو التفضيل، وانما يجري الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان

انما يجري الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان، وحيث تمضي هنا مع الله وتمضي هناك مع «مامون»..

ولا تناقض في هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته، ولهذه الغاية القصوى ينبغي أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه

وفي مثل من الأمثلة التي تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر في البرج الشامخ

«من منكم- وهو يريد أن يبنى برجا- لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله؟»

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول في أساس البناء، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء

فمن نظر الى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذي تنص اليه الركاب، فهنالك القبلة التي يتلاقى عندها ما تشعب[1]، وينتهي اليها ما اعوج أو استقام من الدروب

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين: ترحيبه بالأطفال الصغار، وخطابه للمنبوذين المحقرين، فانتهزهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم:

«دعوا الأطفال يأتون إلي ولا تمنعوهم.. فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه»

وقال لقوم أيقنوا انهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب: «صعد اثنان الى الهيكل يصليان، فريسى وعشار

«فأما الفريسى فراح يقول في صلاته: حمدا لك يا الهي! انني لست كسائر

---

(١) شعابا: الشعب بكسر الشين: الطريق في الجبل.

هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة، ولا كمثل ذلك العشار، أصوم في اليوم مرتين وأؤدي حق العشر عن كل ما أقتنيه

«وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله: ارحمني يا الهي أنا الخاطىء... فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور»

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه، ولو انهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالة واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد، وأن يزهد في يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده، فانما في الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول ..

وجماع القول أن الدعوة الجديدة، كانت ككل دعوة جديدة مريبة مناقضة لما حولها، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التي تستقبلها فهنالك تلتقي الشعاب ويحسن المآب

شريعة الحب

استوفتَ الدعوة تجربتها في فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها كانت كافية.. لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة: وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم

وكان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذي لا يحابي ولا تردد، ينذر كثيرا ويبشر قليلا، ويضع الفأس على أصل الشجرة، ولا يبالي أن يلقى بها حطبا في الأتون.

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون: وهما زكريا واليصابات..

وفي انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية في نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور، فطال مكثه في المحراب، وجمهور المصلين يترقب ويتعجب، حتى عاد صامتا لا يتكلم، فعلموا انه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب، ثم روى انه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرَته رجفة فقال له الملك: لا تخف يا زكريا.. ان الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويردُّ بني اسرائيل الى إلههم، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته »

وقد ذُكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم: « هنالك دعا زكَريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله

وسيدا وحصورا[1] ونبيا من الصالحين. قال رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا، واذكر ربك كثيرا وسبِّح بالعشى والابكار»..

وذكرت في سورة مريم: «ذكر رحمة ربك عبده زكريا، اذ نادى ربه نداء خفيا، قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، واني خفت الموالى[2] من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا. قال رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا. قال رب اجعل لي آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة، وكان تقيا، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه في القرآن الكريم بالحصور، وكان عليما بالكتب الدينية، يسمعها من أبويه ويتلوها في خلواته، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه في تهجده ونسكه، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس في ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل البري ويهيب بالناس في صوت قوي صارم: توبوا واستعدوا. قد وضعت الفأس في رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار: صوت صارخ في البرية كما قال الأنبياء الأقدمون

ولم يكن يتقي حرجا في كلامه عن ذي خطيئة أو دنس، فراح ينحى بهذا الصوت القوي الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة، فلما اعتقله الملك وجيء به الى حضرته لم يسكت ولم

(١) حصورا: الحصور: الهيوب المحجم عن الشيء. والذي لا أربة له في النساء.

(٢) الموالي: أبناء العم. وخفت الموالي من ورائي أي خفت قومي بعدي أن يضيعوا الدين.

يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله..

وفي سهرة من سهرات اللهو التي تعود هيرود أن يحييها في قصره، رقصت بنت أخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائنا ما كان، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا في طبق، وأصرت على صبها فأعطاها ما سألت وهو كاره، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء،فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم، كما يفعل الدينيون «المحترفون» عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم ولا يعيشون في زمرتهم، فكان يوحنا يصيح بهم: «يا أولاد الأفاعي، لا يهجس[1] بأخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم.. اني أقول لكم ان الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم»

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول في زمرة التائبين وطلاب الخلاص، ولو لم يكن لهم نسب في آل يعقوب وابراهيم..

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التي لا تضلها أهواء السيادة، وبقي اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم: أجيبوني (أولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس؟.. فلم يستطيعوا جوابا لأنهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم واذا أنكروا غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين..

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه، وهو شديد الحذر من اغضاب ذوي الرأي والسلطان، فقد قال عنه: «انه كان

(١) يهجس بأخلادكم: هجس الشيء في صدري خطر ودار في خلدي. والخلد ضمير الانسان ووجدانه.

انسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله ». وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه، وهي شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص في عصره، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم ان دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت في قبيل واحد، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته، ولو لم يكن من ذلك القبيل..

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا، فلم يكن متأبدا[1] ولا نافرا من الناس. بل كان يمشي مع الصالحين والخاطئين. وكان يشهد الولائم والأعراس، ولم يكن يكره التحيَّة الكريمة التي تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير، وقالوا: لماذا هذا السرف؟.. لقد كان أحرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء، فقال لهم عليه السلام: « ما بالكم تزعجون المرأة؟.. انها أحسنت بي عملا، وان الفقراء معكم اليوم وغدا، وليست معكم في كل حين ».

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بها تلك الصرامة. وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال: « ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة »

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادي من يستمع اليها، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها: دعوة الغيرة الصارمة الأبية، ودعوة الغيرة السمحة الرضية، ولو قدر لها أن تعيش في قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه، فلم يسمع بها العالمون

---

(١) متأبدا: تأبد البهيم: توحش. والمنزل أقفر.

الشــريعــة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهي من جانب البحث السياسي أو جانب البحث الاقتصادي أو جانب البحث الاجتماعي ، أو الديني ، أو الثقافي الى نتيجة واحدة: وهي ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق ان ينتقل بها الى العصر الذي بعده دون أن يطرأ عليه طارئ ، ولن يكون ذلك الطارئ انقلاب شامل

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه في عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ الا ضربا من الرياء الاجتماعي ، لأنه معلق في جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء

لكنها رسالة لا تلزم لتأتي العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها في تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف

انما تلزم الرسالة في أمثال ذلك العصر لتعطي العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه . .

والآداب الانسانية هي الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ، ويشعر بتلك الحاجة العظمى

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين . .

ويوشك مع الظلم أن يكون كل منهم مظلوماً ، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ . .

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ في أحضان الدعوة الجديدة: أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة

طوبى للحزانى. طوبى للمساكين. طوبى للجياع والظماء. طوبى للمطرودين في سبيل البر، طوبى للودعاء والرحماء: «تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين... احملوا نيرى عليكم وتعلمّوا مني... فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيرى هين وحملي خفيف»

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون انهم جائعون، والأغنياء الذين لا يعلمون انهم معوزون، والمتجبرين الذين لا يعلمون انهم مساكين، والمتكبرين الذين لا يعلمون انهم منكسرون

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء، والتقوى المزيفة، وربما كان الأصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته، وعلم ان الشكران على قدر الغفران، وان الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة: «مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. ليس لهما ما يوفيان، فأجز لهما شكرا من سومح في الدين الكبير»

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب، ويعم الرياء في كلا الجانبين، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها: فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة... والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان..

زنظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقابا بعد أحقاب، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام - فإذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانحها، فعلَّمها من دروس الحب القدسي، ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين[1]، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات

(١) المقسطين: أقسط الرجل: عدل.

ذلك العصر المريج[1] صورة مشرقة.. زالت شرائع الهيكل، وزالت شرائع رومة، وهي باقية عالية: صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله، يتساءلون: كيف يزعم انه نبي ويجهل انها امرأة خاطئة، فقال: «أتنظر الى هذه المرأة! اني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء، ولكنها غسلتهما بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها، ولم تمنحني قبلة وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي، ولم تدهن رأسي بزيت، وهي قد دهنت رجلي بالطيب... ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت للنقمة والعقاب

منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة» ويتنحى لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بابطال أو بانقاذ: لا يبدلها ولا يدعي لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة في زمنه، فانه- كما تقدم- قد نشأ في دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمتحكمين: ما فاض من رومة الشرائع تملؤه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه، ولا حاجة الى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لا يساوي جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهودية التي تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن المحقق أن الشر الذي ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذي يتأتى من روائه- ان تأتّى- وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب

(١) المريج: بفتح فكسر: المختلط الملتبس من الامور، ومنه: فهم في أمر مريج.

الآداب الانسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدي أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة- سلطة الدين قبل كل شيء- بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود

جاءوه في ميدانه بعد أن ترك لهم ميدانهم، ووقع الاشتباك الذي لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة في الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء في الغفران..

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم، وهي على كونها مصلحة مربحة، باب للفخر والكبرياء..

فجاءوا يسوقونه الى حيث أبى أن يساق، وكان همُّهم الأكبر أن يثبتوا عليه انه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة، فأعنتوا لقولهم في البحث عن المشكلات والألغاز التي يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية، أن يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح..

برز له مرة واحد من جوع السامعين فقال له: «أيها المعلم!.. مر أخي يقاسمني الميراث»... وظن انه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه، فما زاد على أن قال: «أيها الانسان، من أقامني عليكما قاضيا أو حسيبا؟»

وتعمدوا وهو في الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة، وراحوا يتصايحون: «أيها المعلم: هذه امرأة أخذت وهي تزني، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية، فماذا تقول أنت؟»

ماذا يقول هو؟.. ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها؟.. ان الشرك مكشوف على وجه الأرض. وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا... ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه، وان

قال اطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل. فكيف الخلاص من جانبي الشرك، ولو انه مكشوف معروف؟!..

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهي من القضية الى حل لا يدعي به السلطة ولا ينكرها، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه اليه، وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم[1] وسؤالهم، فوقف قائما وردَّ عليهم رياءهم في وجوههم، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم: « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر »

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعي تنفيذها ولا يجامل رياءهم.. بل يدعهم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان!

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه، فسألها سؤال العارف: « أين المشتكون منك؟.. أما دانك أحد؟ » فقالت: « لا أحد أيها السيد ». فأرسلها وهو يقول: « ولا أنا أدينك.. فاذهبي ولا تخطئي »

نعم.. لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيها، لأن القاضي لا يدين بغير شكوى، وبغير شهود، وبغير بيِّنة!..

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتها في ذلك العصر أن تتصدَّع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة في عرف قومها، فقال: ان الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلها الانسان وقد جمعها الله « ومن طلق امرأته الا لعلة الزنى دفعها الى الزنى. ومن تزوج مطلقة فانه زان »

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيهقين[2] من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين[3]، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسي » الذي نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة، وأراهم انهم يتعاملون بنقود قيصر

---

(١) جلبتهم: الجلبة: الضجة.

(٢) المتفيهقين: تفيهق الرجل في كلامه توسع مالئا فمه.

(٣) مفحمين: أفحم خصمه: أسكته بحجته القوية.

ويكنزون منها الثروة والمال، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معاً والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء. فلما قيل له ان شريعة موسى توصي الأخ أن يبني بزوجة أخيه المتوفى حفظا للأسرة، وسألوه: «لمن تؤول في يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة؟» خيل اليهم انه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضي الصدوقيين أو يرضي الفريسيين، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء، لأن الأحياء في العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم، ولا يتناسلون!..

والحق ان الأناجيل لا تروي لنا من هذه المساجلات الا ما نشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيهقون لتعجيز المعلمين والوعاظ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حلقة على حسب الموضع والموضوع

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهي دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على «الشخصية» التاريخية، والدعوة المتناسقة، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين، بل هم يروونها ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية، فإن هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالإبطال أو الابدال، ووجهتها على الدوام انها لا تدعي سلطة من سلطات الدنيا والدين، وان مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات.. كذلك قال لكهّان الهيكل، وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان، وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة. فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التي تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء، وعن خطيئة اليد التي تقطع اذا وقعت في العثرات، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس في مسلك المسيح كله في رسالته ما يجريه مجرى الالزام، ومع هذه غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه، وقل من الرواة من فرق في فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التي ترتفع الى

الأكمل فالأكمل وتنفذ الى المعاني من وراء الألفاظ، ويرجع الأمر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل[1] عينا أو يدخل في الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء، ولو خلصت هذه المعاني الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل..

(١) يسمل: سمل عينه: فقأها.

تجـــارب الدعـــوة

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر.. فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن في تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها، وينتهي الأمر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة، واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه، والا كان ذلك مطعنا في براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه[1] المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها، ويحدث هذه لكل «شريعة» صارت الى أيدي الجامدين والحرفيين، فقد أدركنا في مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية، وافتنانا منهم في عَصْر العبارات ونَبْش الدفائن، واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة في ميدان الحوار ومجال اللف والدوران

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى، وانما النفس البشرية هي الفريسة التي يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة في وجهها، ويقدح في غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة.. وتلك خيبة للشرائع والقوانين، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها!

---

(١) غرمائه: الغريم: الدائن، والمديون، والخصم. يقال: خذ من غريم السوء ما سنح.

فالشارع الماهر في عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا..

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة

وقد تنتفخ الأوداج[1] بهذا الفخر علانية، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على إدانة الآخرين..

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة في اللعب بالألفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى، وحتى يزول الجوهر في سبيل العرض، ويزول اللباب في سبيل القشور، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير في سبيل الكلمات والنصوص، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال

واذا صار أمر الفضائل الى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنه خواء، فلا فرق بين المرائي وبين الصادق في فضيلته، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهي ووراء العقاب والاحتيال

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر

وعالم الظواهر غير عالم الضمير

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية:

عالم كله قيود وأشكال..

وعالم طلق من القيود والأشكال، في ساحة الضمير

روى انجيل متى في الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال: «لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل»..

وروت الأناجيل انه عمل في يوم السبت وسخر من المحرمات التي لا تدنس الإنسان، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه؟

ان شئت فقل انه نقض كل شيء

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة

---

(١) الاوداج: جمع ودج بفتحتين وهو عرق الى جانب ثغرة النحر وهما ودجان يميناً وشمالا.

لأنه شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحبّ، أو شريعة الضمير..
وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه

وينبغي هنا أن نصحح معنى الناموس في الأذهان، فان معناه هو « القوام » الذي يقوم به كل شيء، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التي يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود، فلن يزال قائما - كما قال السيد المسيح - ما قامت الأرض والسماوات

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لأنه جاء بشريعة الحب، وهي زيادة عليه..

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب. أما الحب فيزيد على الواجب، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء

بهذه الشريعة - شريعة الحب - نقض المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - رفع للناموس صرحا يطاول السماء، وثبت له أساسا يستقر في الأعماق

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - قضى على شريعة الكبرياء والرياء، وعلم الناس ان الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب

وفي اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وجلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة: شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قيلت في هذه الوصايا فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال، وكل مناسبة رويت فهي المناسبة التي تقع في الخاطر ولا تصل إليها شبهة الاختلاق.

يلزم في شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالي على الآخرين، ويلزم في شريعة الحب من يقول لذلك المتعالي على غيره المتفاني بنفسه: «لماذا تنظر الى القذى في عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة التي في عينك؟ »..

يلزم في شريعة الفرح بالعقاب والسعي وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة في المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الأعراس، ويلزم في شريعة الحب من يبهت[1] ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه: « منْ لم يخطئْ منكم فليرمها بحجر »

ويلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلي بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيًّا ينمّ عليه بعبوسه وضجره.. ويلزم في شريعة الحب من ينهي الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين في الجامع وفي زوايا الشوارع «ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فانهم يغيِّرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع على الصدور »..

يلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطي بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته في الطرقات والأسواق، ويلزم في شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين..

في شريعة الكبرياء يتقي المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشَّارين والخطاة، وفي شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغي أن يقال لهم: انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة «الظواهر والأشكال» غايتها وطغت من الهيكل الى البيت، ومن المكتب الى السوق، ومن المنبر الى المائدة. حتى لقمة الطعام

(١) يبهت: بهت الرجل: قذفه بالباطل وقال عليه ما لم يفعله. وفلانا: أخذه بغتة. وعليه: كذب.

أصبحت لا تحل أو تحرم الا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم، وما تحاط به من الشعائر والمراسم، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم.. فبحقٍّ يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدي والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة: «ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير، وان الدنس انما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والفسوق والكفران»

ومجمل القول ان الخير كله كان في حكم شريعة الظواهر والأشكال، شريعة الكبرياء والرياء، مسألة «امتياز رسمي» يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه الى الموروثات والمأثورات

فالفضل بين الأمم «امتياز رسمي» محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم، والفضل بين الاسرائليين «امتياز رسمي» محتكر لأبناء هرون وأبناء لاوى أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث، والفضل في الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون «وثيقة في صك مرسوم» تضمن الإيثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب.. «فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب، بل هي محبته وحفظه القسم الذي عاهد عليه آباءكم»

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هي الكلمة التي تقال في كل ما ادعوه، وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة «بل الذي يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي».. «ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء»

وانما الرحمة عمل، لا نسبة ولا حرفة، وضَرب لهم مثلا: «انسانا خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه.. ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأولاه

عنايته ثم خرج لصاحب الفندق عند مرجعه ».. قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل: «أي هؤلاء الثلاثة أقرب الى ذلك الصريع الجريح؟ » والجواب الذي لا خلاف عليه بداهة أن السامرى المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين!..

وراح يجبه[1] فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من ألغاز الفقه وأحاجي[2] الشريعة، فقال لهم: «ان الدين بما تعمل لا بما تعلم».. وحذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم. «لأنهم يحزمون الأوقار[3] ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعا يزحزحونها، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم.. يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في الجامع، ويبتغون التحيات في الأسواق وأن يقال لهم: «سيدي سيدي حيث يذهبون... »

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين: «أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل.. انكم تنقون ظاهر الكأس والصفحة وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون- انكم كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل، وداخلها عظام نخرة »

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا، وسألوه: أيها أعظم في الناموس؟.. حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا في كلمات معدودات: «ان تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك»..

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر[4] والأوراق ولا تكون العقبى انه يهدر[5] الفرائض والأحكام وانه يستبيح ما لا يباح، بل

(١) يجبه: جبه الرجل: ضرب جبهته ورده عن حاجته.

(٢) أحاجي: جمع أحجية بضم الهمزة وهي اللغز.

(٣) الاوقار: الاثقال.

(٤) القماطر: جمع قمطر بكسر ففتح: شبه سفط من قصب تصان فيه الكتب.

(٥) يهدر: يبطل.

لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع في سبيل الحب ما لا يصنعه في سبيل الواجب، وكل ما هناك أن تصبح الفضيلة وحي نفس وحساب ضمير، ولا يصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الافعال والوقائع، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسؤ..

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب. أما أنا فأقول لكم ان من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى.. فإن قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك، فدع قربانك أمام الذبح واذهب فصالح أخاك..

« وقيل للقدماء لا تزن. أما أنا فأقول لكم ان من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فان كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فأقلعها والقها عنك، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك..

« وقيل للقدماء لا تحنث.. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا.. وليكن كلامكم كله: نعم. نعم.. لا.. لا.. وما زاد على ذلك فهو من الشيطان..

« وسمعتم انه قيل عين بعين، وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر، ومن سخَّرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين..

« وسمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم، واغفروا لمن يسيء اليكم ويطردكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين. وأي أجر لكم ان أحببتم من يحبونكم. أليس العشارون يفعلون ذلك؟ وأي فضل تصنعون ان خصصتم اخوتكم بالسلام؟.. أليس العشارون يفعلون ذلك!.. فتعلقوا أنتم بالكمال، فإن الله كامل يحب الكمال »

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر، ولكنها لا تهدم

الناموس ولا تعصف بركن من أركانه، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب، لأن الانسان يحساب نفسه اذا أحب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع، وكان السجال بينهما هو السجال[1] الذي تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود في وجهته أو جزافا[2] يقوله كل قائل ويأتي لغير مناسبة، ومن ثم نقول ان الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين: شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء، ويدفع بها حيث تندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم في مواضع اللبس على ذوي النية الحسنة، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا، وكل ما مشى في سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك، ولن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح الا على عباد الألفاظ والنصوص، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزدريها وترجع بكل شيء الى مقاصد الحب والضمير. ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة في الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة[3] على الثوب الرديم[4].

---

(١) السجال: المباراة والمفاخرة.

(٢) جزافا: الجزاف: بيعك الشيء أو اشتراؤكه بلا وزن ولا كيل.

(٣) القشيبة: الجديدة.

(٤) الرديم: من الثياب: البالي. وثوب رديم أو مردم: مرقع.

آداب حياة

كان «أوريجين» فيلسوفا ملحوظ المكانة في تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية. ويرى الكثيرون انه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده في حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين في عصره، غير مستثنى منهم أساتذتهم الأولون

هذا الرجل قرأ في شبابه قول السيد المسيح ان أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم في سبيل الله، فحمله على معناه الحرفي وجبَّ نفسه ليتقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال السيد المسيح..

الا أن ثبوت هذه الرواية في سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية في عصرها الأول، فقد كان الرجل يفقأ عينيه اذا علم انها نظرت الى امرأة نظرة اشتهاء، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودته الشهوات، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة، فاذا كان شاب في ذكاء «أوريجين» وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه في الفطنة والدراية

لكن «أوريجين» نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف حين أوصى بكفِّ الأعضاء عن نزغات [1] الجسد.. فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات، ولم يعن

(١) نزغات: وخزات. ونزغة: زخزه.

بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية، وكان « كلمنت الاسكندري » يقول بحق: ان السيد المسيح لا يعني بنبذ المال أن نرفضه بتاتا في جميع الأحوال، والا لم يكن الإحسان فضيلة من أكبر الفضائل في الوصايا المسيحية، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه..

الا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال حكماء المسيحية، ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا في الوصايا التي تدور على رفض الحياة خاصة، وغير قليل من المتأوّلين ينحو منحى الدكتور « شويتزر » schweitzer الذي يرى ان السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وان الدنيا التي يهجرونها مقضى عليها بالفناء في مدى سنوات، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المدَّخرون للدنيا الزائلة..

وفي اعتقادنا انه لا محل للخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة، فان كل دعوة في عصر السيد المسيح أو في عصرنا هذا، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى.. ونظام فرق الفداء في الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه، وأول أحكامه أن يفكر « الجندي المجاهد » في الموت قبل تفكيره في الحياة

انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل.. الى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات في اعتمادهم على الغذاء والكساء؟..

أقول حقا انني أفهم وصايا السيد المسيح جميعها ولا أجد في فهمها صعوبة على الاطلاق اذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام، واذا علمنا انه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها في هذا المقال: « ليس الانسان للسبت، وانما السبت للانسان »

لقد كان هم السيد المسيح في الاصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير..

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود

كانت العروض هي المحور الذي تدور عليه حياة الأمم والآحاد في عصره، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة

كانت «الأشياء» مقدمة على النفس الانسانية، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمة على الأشياء

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم

واذا كان «الحطام» هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل. سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم، مداره خطأ وسعيه عقيم..

اذا كانت «الشهوة» هي محور الحياة فسيان من يشتهي بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة والغواية، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذي يدور عليه

ولكننا ننقل المحور، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق، فينتقل كل شيء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق

اذا أصبح كسب النفس الانسانية- كسب المحور- هو غاية الحياة فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئا من الأشياء..

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط

واذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد

وتغيير المحور هو الذي عناه السيد المسيح

وتغيير المحور لازم في ذلك العصر، لازم في هذا العصر، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجاً للرسالات، ولم تكن آخر الرسالات في الحياة الانسانية

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو انه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال، ورأى الناس يغرقون في تعذيب الجسد

ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف، فان المسيح قد غيَّر المحور هذا التغيير في زمانه.. غيَّره حين قَبِل انفاق الدنانير في عطر تمسح به قدماه، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح.

وما كان الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات. انت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف، ولا تزيد

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الأوقات، فتهالك عليها أياما في الأسبوع، أو تهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بها قليلا ولا تجعلها شغلا شاغلا بغير انقطاع

كلا.. لم يكن الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وانما كان على الدوام مسألة «محور» ينتقل، أو مسألة «باعث» يتغير، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف في مسافاتها ومقاديرها، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذي انحرفت عنه أو الى محور جديد

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد انه كان يدرك ما يقول وهو يقول: «من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء»..

أترى السيد المسيح كان يفوته ان الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطي هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب؟ كلا.. ما كان يفوته ذلك ولا ريب، ولا أدنى ريب

ولكن النفس الانسانية هي المقصود، وليس المقصود هو الرداء أو القميص.

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها، بمثل من الأمثلة، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه!

فليكن العطاء حبا وطواعية، لأن من يعطي مجبرا أو يعطي ما لا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه

وليس كذلك من يُعطى لأنه يريد العطاء.. انه يكسب ما أعطاه ولا

يضيعه، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه، ومن كان لا يبالي أن يعطي العالم كله ليربح نفسه فأخلق[1] به أن يربح نفسه بقليل من العطاء

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا، ولا يعبد سيدين، وهذا كل ما أراد

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه

ومن يعبد الله ويستبعد المال فلا جناح عليه

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور..

ونحسب أن النهي عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومتاعها وزينتها. فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله، ولا نجاة لإنسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع في مكان مجتمع، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الأمة، وأقامها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها..

فالجسم أفضل من الطعام واللباس..

والانسان أفضل من السبت..

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم..

ومملكة الضمير في قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة[1] العلماء والحفاظ، ولولا هذه الحذلقة[2] لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها في كل زمن، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم، وعندها في كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور،

(١) أخلق به: صيغة تعجب معناها: ما أحقه وما أجدره.

(٢) حذلقة: تحذلق الرجل أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده، تقول: ان فلانا يتحذلق علينا.

وهذه الحذلقة هي التي حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية، فليس عندها مستمع لنبي ولا لحكيم

ان الحذلقة هي التي أبت أن تفهم حين قال القائل: ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره... أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه السامع؟.. بلى.. وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل. ولكن الحذلقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة: ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور..!

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرته العمل؟.. كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير، ولكنهما يستويان على الأقل، ان لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون، بدلا من فرد منقار وفرد عين!..

كذلك يقول السيد المسيح: من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما في حوزته؟

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم؟.. بلى فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل، ولا نريد الا ظهورا «على حساب» الفهم والعمل كما يقولون، ولولا ذلك لما غاب عنها ان الجديد في الأمر هو امتحان المعطي الذي يقتدى به في الاحسان، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة، وانما الخلاف الذي يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والإيثار

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء والنفاق، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة[1] في قياس المسافات ولا تقدير المقادير..

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال الا الى حين وفي حيز محدود، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الإنسانية، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد

---

(١) مشاحة: منازعة ومناقشة ومجادلة.

ملكوت السموات

« انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »

« قرآن كريم »

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيا الدعوات الدينية الكبرى، وما من شيء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي اليها دعواتهم على غير قصد منهم، بل على خلاف ما قصدوا اليه، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم الى أين تسير، والى أين يسيرون..

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين؟..

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية.. فلو أنها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذي كان محسوبا من العقبات، بل أكبر العقبات في صدر الاسلام

وماذا لو أن بني اسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين؟..

كان غاية الأمر أن نبيًّا من الأنبياء يضاف اسمه الى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم. وتبقى اسرائيل في عزلتها كما كانت، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ، منسيَّة لا تذكر، أو تُذكر كما تُذكر أصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة.. رومة القياصرة والجبَّارين المتألهين..

فمما لا ريب فيه ان السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى، ومن البديهة أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم، لأنهم عشيرته الأقربون، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب..

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم: ماذا تركتم للأمم؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الأمم كافة، وهم غير مختارين..

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلئ تحت أقدام الخنازير

وعلى رفقه في الخطاب، كان ينتهر المرأة الفينيقية التي أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقي به الى الكلاب

وكان هذا الايثار بديها كما قلنا من وحي الفطرة ووحي الكتب والدراسة، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح، فان المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصي الأقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن ندني اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام

فلماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال؟.. ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد!..

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة في نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شيء في غير ذلك النطاق المحدود

وان لم يستجيبوا جميعا، واستجابت منهم فئة من فئات شتى، فغاية الأمر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة، بل قد حدث فعلا أن فئة من بني اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الأبيونية » أي طائفة الفقراء والدراويش، ثم ذهبت هذه الطائفة في الغمار فلا هي الى اليمين ولا الى اليسار، ولم يبق لها نصيب في تاريخ اليهود، ولم يبق لها نصيب في تاريخ المسيحيين!

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الأردن، واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرّم الاقامة على سائر اسرائيل، وظلت ردحا من الزمن لا هي اسرائيلية خالصة ولا هي مسيحية خالصة، ثم ذهبت في الغمار[1] كما ذهب الأبيونيون.

لقد مر بنا المثل الذي ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين: مثل الأمير الذي أولم الولائم، وأرسل الى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه في طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى ما بعد يوم الوليمة، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر، ومن تزويه[2] الأزقة أو تقذف به الطريق، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة، وهكذا تعمر وليمة السماء التي يتأخر المدعوون اليها، ويتقدم اليها من هم أحق بها، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون..

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواهم فأنكروه وألحفوا في انكاره: «ان الحجر الذي رفضه البناءون صار على رأس الزاوية، ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره، من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، هناك يُدعى الكثيرون ولا يُنتخب الا القليلون»..

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلّت وصاياه التي يخص بها «الأمة» ويفردها بين الأمم، وكثرت في وصاياه الآداب الانسانية التي يستحق بها الانسان ملكوت السماوات، فردا فردا كائنا ما كان شأن الأمة التي ينتمي اليها، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بني الانسان أجمعين

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة، بل لا يذكر بلفظ واحد في جميع الأناجيل، فان مرقس ولوقا

---

(١) الغمار: بالضم والفتح: كثرة الناس وجمعهم المتكاثف، تقول: دخلت في غمار الناس.

(٢) تزويه: زوى الشيء نحاه، وسره عنه: طواه.

يذكرانه باسم ملكوت الله، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات، ويتفق أحيانا أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الانسان

كذلك يبدو من بعض الأقوال انه حاضر على الأبواب، وان من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا في ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد وأن الضلال في دعواه طويل الأمد «لا يضلنَّكم أحد.. فان كثيرين سيأتون باسمي فيضلّ بهم كثير. وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد، بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى، وهذه كلها بوادر الأوجاع، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم في سبيلي، ثم يأتي أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين، وتفتر محبة كثيرين، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجون، وينادي ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم (٢٤ متى)

وأحيانا يأتي الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجئ مجهول الموعد: «اسهروا اذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم، ولو عرف رب البيت في أي هزيع[1] يأتي السارق ما سرق، فاستعدّوا أنتم كذلك.. لأنه في ساعة لا تخطر لكم يأتي ابن الانسان»..

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر في هذا الجيل

ويشار الى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه: «أطلبوا أولا ملكوت الله وبره»- (٦ متى)- «وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات»- (١٣ متى)

وأحيانا يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح: «اجعل لكم ملكوتا كما جعل لي أبي»، ويقول لوقا: «ان التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح هب إلى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد[2] أن يظهر في الحال»- (١٩ لوقا)

---

(١) هزيع: الهزيع المدة من الليل.

(٢) عتيد: الحاضر المهيأ.

وقد رأينا في كتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوي الآراء، كأنها أمر غير منتظر في تقديرهم، وهي في اعتقادنا أقرب شيء الى البداهة وطبائع الأمور

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذي يفهم كل سامع انه هو العالم الآخر، وانه يأتي في نهاية هذا العالم، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التي جعلت له علامات، والى كلام المفسِّرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة، واختلفوا، هل يأتي المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهي العالم الأرضي بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود

وطبيعي جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات، ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد، بل الغريب أن يخلو كلام السيد المسيح من هذا النذير، سواء ظهر في ذلك الوقت أو ظهر بعده في زمن تتطلع فيه الأنظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات

فاذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا فليكن في الحساب انه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة. كما هو الواقع في جميع الرسالات..

ففي رسالات الأنبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق في السماء وملكوت يعمل له الناس في هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر

هذا الملكوت أيضا - ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الانسان - يقع في البال حتما ان السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه.

ولا بد من لبس هنا مع اللبس[1] الذي يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة، وتوجيهه حينا الى الملكوت يوم القيامة.

(١) لبس: مصدر بمعنى الاشكال والاختلاط والاشتباه.

أما اللبس في فهم الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية- أو رسالة ابن الانسان- فمرجعه من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها، فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصون بها، بل لعلهم يطردون منها، وتعمّ الأمم أجمعين...

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين، ولا مناص من اللبس اذا دعي السامعون الى رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه.

ولا نرى أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت في موضع من المواضع بروزها في الأسئلة التي توالت منهم عليه وفي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذي يستدعى من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتي بدولة بني اسرائيل: «فسألوه قائلين: يارب!.. هل في هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل؟.. فقال لهم: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطانه، ولكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح المقدس، وستكونون شهداء لي في أورشليم وفي اليهودية جميعا، وفي السامرة، والى أقصى المسكونة»..

ونعود فنقول ان اللبس طبيعي جدا في هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين، وان هذا التفاوت البعيد هو الذي يؤدي بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح، لأنه ملكوت لم يكن في طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه، وكل ما في استطاعتهم أن يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الالفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هي الآية على صحة تلك الصورة، وانها هي الوصف المقصود.

والأناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت في مواضع شتى: ذكرت مملكة ليست من هذا العالم، وذكرت مملكة قائمة في ضمير الانسان في كل زمان،

اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لا يجديه، وذكرت مملكة لا يدخلها الانسان الا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البريء، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأن ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع. «ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله؟.. أجابهم انه لا يأتي بمراقبة. ولا يقول قائل هو ذا ها هنا وهو ذا هناك، لأنه هو الآن في داخلكم» (١٧ لوقا).

فالذين استغربوا الأوصاف، ولم يرَوا فيها الا التناقض والشكوك.. ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة؟.. وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتي غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ، ومع حضور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة ووروده أحيانا في كلام السيد المسيح بهذا المعنى؟.. بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتي على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لا بد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم؟..

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب، ولكن العيب في الغربال الذي لا يعمل عمله وفي حامل الغربال الذي ينسى أن الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص.

اذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا، وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذي يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه.

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة، ومن أمة واحدة الى سائر الأمم، بل الى «الانسان» فردا كان، أو عنوانا يشمل كل انسان.

وحدث هذا التحول والعالم الانساني متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها، أو يسبر[1] أغوارها..

والعالم الانساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شيء من قبيلها..

---

(١) يسبر أغوارها: سبر يسبر: قاس يقيس، والاغوار جمع غور وهو العمق، أي يقيس أعماقها.

مثله في ذلك مثل التربة التي ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار.

كانت العلاقة العالمية، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام، ولكنها قد وجدت في بقاع من الأرض ولم توجد في سرائر الضمير، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الأخوة والصفاء.

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب والسلالات، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك، اما في ربقة الرق الصراح أو في ربقة أخرى لا تقل عنها في القسوة والنقمة، وهي ربقة الحرمان والقنوط.

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثني عن رسول يجمع الأقوام الى دين واحد، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد، وكل ما يحدث في الأديان الوثنية أن تتغلب الدولة التي تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها، وتفرض عليها العبادات التي تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام.

أما الحماسة الروحية التي كانت لازمة لتوحيد العقيدة في العالم الانساني فلم تعهد قط في غير الأديان الكتابية أو الأديان الإلهية، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بإله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود.

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول في تلك الفترة.

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا في قومه، ولم يوجد

بينهم مقصور الدعوة عليهم، فوجد فيه العالم بغيته في ساعة الحاجة اليه، وانها لآية من الآيات التي يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين، لأنها من التوفيقات التي يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير.

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها، فإن الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة، أما هذه الرسالة - رسالة الملكوت السماوي- فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين، وصح ما رووه عن جوليان- سواء قاله أو لم يقله- فانتصر « الجليلي » بملكوته السماوي على ممالك القياصر، وضم القياصر الى حاشيته، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله!..

الفَصْلُ الخَامِس

أدوات الدّعْـوة

- قدرة المعلم
- اخلاص التلاميذ

قدرة المعلم

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجاً إليها، ومستعداً لسماعها، وهما شيئان مختلفان لا يذكرانِ في معرض الترادف والتماثل، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء، وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل.

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجا الى الدعوة المسيحية، مستعدا لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع.

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر بموعده في تلك الحقبة من الزمن، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا «سلبيا» بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء، وكان عامته في بؤس ويأس، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف، من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية أو دان بالرواقية، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث في شئون الغيب، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات.

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنحل السرية، فهم اذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسلم ما يقال عنه في صدد العقيدة المقبلة انه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها..

كان العالم في عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما في ذلك ريب، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيدة عفوا صفوا بغير جهاد من رسلها ودعاتها، وبغير كفاية عالية في أولئك الرسل والدعاة.

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس واجتذاب الأسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد.

وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية، وبحقٍّ سمِّي المعلم ونودي به في مختلف الجامع والمحافل، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحي حيوي من طريق التعليم.

نودي المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات: ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين..

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون في كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا واشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التي نسبت إلى موسى عليه السلام، وفضلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام.

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون الى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج إلى بيت المقدس في الأعياد، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون الى اسكندرية وبلاد الإغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وانه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء فيها، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة، لأن أقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصلها الآرامي بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ.

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود في تلك الآونة، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح، واقتدروا على الاستشهاد بها والتنقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ.

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ.

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب.. ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب.

كانت في تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية، لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات[1] المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد..

كان أسلوبه في ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير وليس في الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد، كما في هذا المثال:

« اسألوا تعطوا

« اطلبوا تجدوا

---

(١) التصريعات: التصريع في فن البديع أن يتفق عروض البيت من الشعر وضربه في الوزن والاعراب والتقفية وأحسن ما يكون في أول القصيدة.

« اقرعوا يفتح لكم
« لأن من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له الباب
« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا؟
« أو يسأله سمكة فيعطيه حية؟
« أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا؟
« فاذا كنتم- وأنتم أشرار- تحسنون العطاء للأبناء، فكيف بالأب الذي في السماء يعطي الروح القدس لمن يسألون »

أو كما في هذا المثال:

« كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الانسان
« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون، الى اليوم الذي دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع.
« كذلك في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون، ولكن اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع.
« هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الانسان
« في ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته في البيت فلا يهبط اليها ليأخذها..
« ومن كان في الحقل فلا يرجع الى الوراء. ألا تذكرون امرأة لوط؟
« ومن طلب الخلاص لنفسه يهلكها، ومن أهلكها يحييها
« أقول لكم فاستمعوا: في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه
« وتكون اثنتان تطحنان، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى
« ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك
« .... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور »

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم:

« يا أورشاليم ، يا أورشاليم!..
« يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها..

« ولم تريدوا..

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب »

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم:

« يا بنات أورشليم!..

« لا تبكين علي.. وعلى أنفسكن وأولاددكن فابكين..

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع..

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم، والآكام أن تكون غطاء لهم

« ان كان البغض الرطب يصنع هذا، فباليابس ماذا يصنعون؟ »

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه في تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير..

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال، ومنه القالب الذي يعول على الرمز، والقالب الذي يعول على الحكمة، والقالب الذي يعول على القياس ، والقالب الذي يعول على التشبيهات، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير، وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال..

فمن نماذج المثل الذي يعول على الرمز مثل الزارع والبذور. « زارع خرج ليزرع وفيما هو في الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته، وسقط بعضها في مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق، واذا لم يكن له عمق في جوف الأرض جف، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر، وسقط غيرها في الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة. من له أذنان للسمع فليسمع ».

ومن نماذجه مثل فتيات العرس: « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس: خمس منهن فطنات وخمس غافلات. أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا، وأما الفطنات فأخذن

الزيت في آنيتهن مع المصابيح، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل: ها هو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه.. فالتفتت الغافلات الى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن: لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع. وفيما هن ذاهبات قدم العريس.. وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين: افتح لنا يا سيد.. افتح لنا يا سيد.. فأجابهن: من أنتن؟.. اني لا أعرفكن!.. »

ومنه قوله: «أنا خبز الحياة، من يقبل علي لا يجوع »

ومن نماذج المثل الذي يعول على الحكمة: «لا تطرحوا الدر أمام الخنازير ».. «بالكيل الذي تكيلون يكال لكم ».. «أيها المداوي داو نفسك ».. «خمر جديدة في زقاق قديمة ».. «لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك ».. «من ثمارهم تعرفونهم ».. «لا كرامة لنبي في وطنه »..

ومن نماذج المثل الذي يعول على القياس: «ان كنتم تحبون من يحبونكم فأي فضل لكم؟.. أليس ذلك شأن العشارين؟ »

ومنه في تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين: «لا حاجة بالأصحاء الى طبيب، وانما المرضى يحتاجون الى الأطباء »، ومنه: «ان كان النور الذي فيك ظلاما فالظلام كم يكون!.. »

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه: «أنتم ملح الأرض، فان فسد الملح فبماذا يملَّح؟.. انه لا يصلح اذن الا لأن يلقى على التراب ويداس. أنتم نور العالم، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار ».

ومن نماذجه: «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص وحيث يكون الكنز يكون القلب »..

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعاني وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة: «يرون القذى في أعين غيرهم

ولا يرون الخشبة في أعينهم ».. « يحاسبون على البعوضة، ويبلعون الجمل ».. « في الظاهر جدران مبيضة، وفي الباطن عظام نخرة ».. « غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل في سم الخياط ».

ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر، جوابا على سؤال، أو تعقيبا على حادث عارض، أو تقريعا لمكابر، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التي توحيها، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة، وان الخطبة على الجبل- وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات- جمعت من متفرقات كانت منجمة[1] على حسب الموضوعات في أوقاتها ومناسباتها.

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة في البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه في غير هذه الأحوال، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل، ولكنه في الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وأنه تعود التفكير في المواقف المتشابهة فانسكبت قوالب التعبير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة، وهي عادة يعرفها من تعودوا التفكير، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم انهم يسمعون كلاما معهودا، ويوشك أن يتساءلوا: أين يا ترى سمعوه قبل الآن؟.. والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفي الى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه في استغرابه، والواقع أيضا أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا في وقت واحد: غريبا لأنه كان يساورهم ولا يدركونه، وقريبا لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك.

ومن كان كالسيد المسيح تربّى منذ طفولته على التلاوة في كتب الأنبياء

(١) منجمة: مقسمة الى أقساط.

وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة، والأمثال المرددة، واستقامت فطرته على الوحي والإيحاء فليس أقرب اليه من أن ينطق بكلام يحيك في الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته.. وهذه هي البديهة التي كان يعنيها حين يوصي تلاميذه بالاعتماد على الطبع، وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب..

ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسيح قد سمعوا الأمثال في قوالبها مرات كثيرة.. ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبدا أو استمعوا الى خطيب في غير المعابد، فان نقاد البيان العبري والآرامي يردُّون هذه الصيغ البيانية الى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين. فلم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التي تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور..

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه انه يبتعد من مصدره كلما أصغى اليه، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدني مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسامع.. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد، وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الأضداد فينجاب[1] الظلام سدفة[2] بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة، أو شعور

---

(١) ينجاب: انجاب الثوب: انشق، والسحابة: انكشفت.

(٢) سدفة: ظلمة.

المدلج[1] الذي يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح: هداية في رفق ورحمة، واقتراب في غير عناء ولا اقتحام.

في وسعنا أن تتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة، أو يقتربون منه بالعطف والمودة.

وفي وسعنا أن تتخيل من ثم فضل الرسول في الرسالة. فلا رسالة في الحق بغير رسول، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها، وكل ما عداه فروع وزيادات.

لقد كان لبُّ الرسالة المسيحية في لبِّ رسولها المسيح: هداية انسان لا صولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والأفهام، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق في الميدان لأنه صاحب السبق في الدعوة وصاحب السبق في الشهادة، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها، وصاحبها هو المسيح.. وكانت حاجة العالم كله الى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها القادر عليها.. والصالح لإقامتها، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه..

---

(١) المدلج: سار الليل كله.

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة انهم دعاة، أي انهم شركاء للمعلم في نشر الدعوة..

أما الفضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله، ليس فيهم قائد ولا مقود، وكلهم في قبول الدعوة سواء.

كان فضل التلاميذ في الديانة انهم أول القابلين، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين.

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى، كبرت مع الزمن على هذا المثال، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلتهم وهم الصف الأول في الجيش الواحد، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوي اليه..

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسالة، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهي لا تخالف هذا النموذج في التكوين ولا في الطراز، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا[1] وراء رعيل..

في الدعوات قادة ومقودون..

ولكن التلاميذ في الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت، لا فرق في بنيتها بين أولين وآخرين ..

---

(١) رعيلا: الرعيل كل قطعة متقدمة من خيل ورجال وطير وغير ذلك.

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة، فهم جميعا من بيئة واحدة، وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة، كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدي السيد المسيح.

وكان السيد المسيح ينظر الى بعضهم فيقول له: اتبعْني.. فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بميزة عقلية أو نفسية الا أن تكون المزية التي يتوسطها فيه السيد فيدعوه من أجلها، وهي مزية الاصغاء والاتباع.

ولم يبد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين، فلو أصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول، لأن كفاءتهم ولا شك هي الكفاءة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة.. فلم يكن منهم عَلَم بارز لا يتكرر بهذه النسبة في أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى، فلا يقال في واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر، أو أن واحدا منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله ولو حضروا كما حضر على معلمهم القدير. بل كل ما يقال انه مجند يشبه غيره من المجندين، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب..

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء في الأناجيل.

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار انه كان اختيارا نادرا أو مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف، ولعل العامل الأكبر فيه انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة، وان اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة، فان المتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين..

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب الى الأذهان هذا المعنى الذي نرى له المكان الأول في فهم الدعوة وأسباب سريانها.

فالمجندون يقترعون، وكلهم متماثلون في شروط التجنيد، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة في شروط التجنيد.

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التي نفثتها فيهم روح المعلم القدير.

كان يعرف عيوبهم، وكانوا في أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم في تلك العيوب..

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيدا من التوضيح، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم ايمانا، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك..

ولم يحسب قط انهم طود لا يتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة في كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما أمام هول من الأهوال..

فقد أنبأهم انهم سيتخلون عنه، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه، وقد لامهم غير مرة لأنهم يتنافسون على السبق أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الايمان، أو لأنهم - بعد وعظهم وتذكيرهم- لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر، أو تفوته منهم في أوائلهم حالة ظهرت له في أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية على انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم، وليس مطلوبا من الناس في العالم الواسع أن يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل اليهم أن يسيحوا في أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثلا يقتدي به المخلصون..

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لا عيب فيه ولا مأخذ فيه، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم، ويستقبل معهم قبلتهم، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوا.

ومن العبارات ذات المغزى الكبير في الانجيل ان المسيح مضى شوطا بعيدا في دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر، فشاع ذكره في القرى وتساءل الناس عنه: من يكون؟.. فمنهم من يقول: انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى، ومنهم من يقول : انه الياس، ومنهم من يقول: انه نبي مبعوث، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح. بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه: وأنتم من تقولون اني أنا هو؟.. فأجابه بطرس: أنت المسيح.

فانتهره وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد في رواية انجيل مرقس. أما في انجيل متى فقد روى ان بطرس قال: «انت هو المسيح ابن الله الحي»، فأجاب يسوع وقال: طوبى لك يا سمعان بن يونا. ان مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبي الذي في السماوات، وأنا أقول لك انك أنت بطرس[1] وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد انه هو يسوع المسيح».

أما انجيل لوقا فالرواية فيه أقرب الى رواية انجيل مرقس: «ففيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا: ماذا تقول الجموع عني؟.. فأجابوا: انهم يقولون: يوحنا المعمدان، وآخرون يقولون: الياس، وآخرون يقولون: ان نبيا من القدماء قام. ثم سألهم: وأنتم من تقولون؟ .. فقال بطرس: مسيح الله.. فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد»..

والرواية في يوحنا أقرب الى تصوير ما قدمناه، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه «وان كثيرا من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه، فقال للاثني عشر: ألعلكم أنتم تريدون أيضا أن تذهبوا؟.. فأجاب سمعان بطرس: يارَب!.. الى أين نذهب؟.. كلام الحياة الأبدية عندك؟.. ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحي، فأجابهم: ألست أنا اخترتكم... وواحد منكم شيطان!..»

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء في انجيل يوحنا: «قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم. فأجابوه: اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لأحد، فكيف تقول انكم ستصيرون أحرارا؟.. قال: الحق الحق أقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة، والعبد لا يبقى في البيت أبدا. انما يبقى فيه الابن الى الأبد. فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا.. أنا عالم انكم ذرية ابراهيم، لكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لا يقع

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما في العربية وبطرس «بيتر» هي ترجمة الكلمة باليونانية.

منكم موقعا، أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم، فأجابوه: ان أبانا ابراهيم. قال: لو كان أباكم لعملتم عمله، ولكنكم الآن تطلبون دمي وأنا انسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: اننا لم نولد من سفاح[1] لنا أب واحد هو الله. قال: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت اليكم. انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني... أنتم من أب هو ابليس...».

فأجابه اليهود: «ألا نقول حسنا انك سامري وبك شيطان». وبعد أن قال لهم: ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت، عادوا يقولون: «الآن تبين لنا أن بك شيطانا. قد مات ابراهيم وأنت تقول: ان حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت. من تجعل نفسك؟.. ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذي مات»..

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى في دعوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز، وانه أشفق يوما أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ، وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم: «انما بنوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبناء ابليس»:

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الأبد، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية، فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل في الخلاص من هذا الطريق، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه.

والشائع ان التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل، والمفهوم من هذا عند اناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم طبقة عمال الصيد الأميين، ولكنه فهم متعجل مبني على قياس غير صائب. اذ الواقع انهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم، وهو خير لأنهم لو

(١) سفاح: اقامة المرأة مع الرجل من غير عقد.

كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلية في الغباء، وكان منهم من نسميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه، وقدرته على كتابة انجيل «باللغة اليونانية كما هو الأرجح» قدرة لا تتأتى لغير المثقفين، ومنهم يوحنا الذي ينسب اليه الانجيل الرابع، وهو ابن خالة المسيح أو من بني خؤولته، وكان صاحب عمل ناجح في تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول: «انهما تركا أباهما في السفينة مع الأجراء وذهبا وراء السيد المسيح».

ومنهم جيمس[1] قريب المسيح ويوحنا أو «ابن الرعد» كما سماه المسيح لقوته في الانذار وتشديد النكير، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة، وأكثرهم واجه الموتَ في عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوي البأس والسلطان.

وقد استمالت الدعوة اليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول، ومنهم الرسول نفسه وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالتواريخ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا الى الدعوة عطفا على التلاميذ والجامدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية في تقويضه أو الاجهاز عليه.

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعيا الى الفوضى السياسية متحللا من النظام، لشدة انحنائه على الشريعة والجاحدين عليها والمنافقين باسمها، وفاتهم ان الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام.

---

(١) ورد في بعض المراجع ان «جيمس» تصحيف يوناني لكلمة يعقوب، ولكن اسم يعقوب وارد في التراجم اليونانية فالمفهوم على الارجح ان المترجم اليوناني سمع اسم جيمس من أفواه الناطقين بالآرامية فلم يتصرف فيه.

أما البينة في الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات، وتقسيمه للأعمال في مجتمعه الصغير- مجتمع التلاميذ- بين أمين للصندوق، ومباشر لمطالب الجماعة، وراع يرعى القطيع في غيبة السيد، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين.

وأدخل من هذا في باب التنظيم انه اختار أولا اثني عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين في كل اتجاه.. وانهم حين عادوا من رحلتهم، أخذهم ناحية في الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم، ويزيدهم من الوصية والارشاد.

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة... وهي فتنة التنافس على الرئاسة، فعلمهم ان الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلا فذا في تاريخ الدعوات ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه، فجمعهم في محفل ليغسل أقدامهم بيديه، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التي عناها بهذه القدوة، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرون بأن يطيعوه في غسل الأيدي والرؤوس.

وحصر جهده كله في تعويدهم «انكار الذات» وهو فضيلة الفضائل في الأعمال العامة، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التي يدخلونها لدعوة أهلها، ولكنه قال لهم: «لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية... وأي بيت دخلتموه فقولوا سلام.. وأي مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم».

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام فأمرهم «ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم».

ولم يَخف عنهم انهم مُلاقون ويلا من الناس، فليكونوا حكماء كالحيات

وبسطاء كالحمام. أما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح..

وقد أثمرت رياضة الحب في تدريب هذا الجند الروحاني ما لا تثمره رياضة

القسوة والصرامة في تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء[1] في أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم، ويصغرهم أمام الله، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار.

وما هو الا أن حان موعدهم ليعملوا وينتشروا في الأرض حتى خرجوا الى كل وجهة وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور، فمنهم من وصل الى جزر الهند الشرقية كالرسول توما، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس، ومنهم من شغل بنفسه في البلادالأوربية فأرسل صحابته الى افريقية الشمالية، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق، فضلا عن الدعوة في فلسطين.

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب «الأمم» في الجيليل وآسيا الصغرى والاسكندرية، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية في تنظيم الدعوة، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا في كل بقعة، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة، وهنا يصح أن يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذي أصابوه ملحوظا في آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ.

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية» في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت في كل أمة. فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا الى القبول، حراصا على المعاونة والتأييد، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل «السلطة» الغالبة، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله..

(١) الوناء: الضعف والفتور والكلال.

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغير تقية، فكان بطرس في أنطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من «آل يعقوب» فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاة الناس.

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول: «... استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين، وصرت لليهودي لأربح اليهود، وللناموسيين كالناموسيين، ولغيرهم كأنني بغير ناموس... صرت لكلٍّ كلَّ شيء، لعلّي أستخلص من كل حال قوما...».

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا الى المسيحية من الوثنية، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها، وشملهم الاغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد.

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا في تواريخ الأقدمين فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان، أو أعاجيب النقل والرواية، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لأنه أصعب تصديقا من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق، فشتان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقا لعقيدته، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم انه يكذب وانه يدعو الناس الى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها، وهيهات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون. فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الانسان عيانا ما يصدقه في قرارة نفسه، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل..

وليذكر أدعياء التمحيص في عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل في القرن

الأول للميلاد أن يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق.. ومن التكذيب لغير سبب في ذلك العصر أن يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات، فذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكذب انسانا لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق..

ان أسخف السخف أن يقال ان دينا من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق. ان تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل.. ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذي تلقى به الناس رسل المسيحية، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة، ونظروا أمامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين في مقاصدهم، فأصغوا اليهم وآمنوا كإيمانهم، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور..

الفصل السادس

الأناجيل

- شراح الأناجيل

الأنـاجيل

الانجيـل كلمـة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع- أي بكـثرة الأصوات- وهي انجيل مرقس، وانجيل لوقا، وانجيل يوحنا، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف «ك» مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل، ومنهم من يسمى هذه النسخة «لوجيا» Logia بمعنى الأقوال، ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كـتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية، ويعللون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كـتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ في ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعاني والمفردات، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوي كل ما فاه به السيد المسيح، اذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي: «تذكروا كلمات المسيح. ان العطاء مغبوط أكـثر من الأخذ»... وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع الى منتصف القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها

وتتفق الآراء أيضا على أن نسختين من الأناجيل كـتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه، وهما نسخة مرقس التي دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع في كـتاب، وقد كـتبها في رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ، ويتراوح تاريخ كـتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول، دون فيها ما سمعه منه، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين

أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة، وأكثر النقاد يجمعون على انه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح، وآخرون يعتقدون انها بقلم يوحنا آخر كان في افسس ولم ير السيد المسيح.. لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال في سنة ست وتسعين، ولا يظن أن مؤلفا واحدا يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى

على ان الأب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل، وانه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل، وزيادته في التعبيرات الفلسفية، وتوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين

والترتيب المفضل عند المؤرخين أن انجيل مرقس هو أقدم الأناجيل، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة، لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب، مع العلم بأنها كتبت في الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقف والإلحاق، ولم تُقسَّم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ، اذ هي قد تضمنت أقوالا في مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها، ومواطن الاختلاف

بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه انه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه انه يخاطب «الأمم» ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلٓهية التي كانت تحول بين بنى اسرائيل «المحافظين» والايمان بإلٓهية المسيح

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سرى كبير، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الانسانية، ويحضر في ذهنه ثقافة السرى الذي أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن «الكلمة» Logos ووصف فيه التجسد الإلهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة

وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من مصدر، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان انها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها، ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها، ولكننا نجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراءها من الإبانة عن شخصية الرسول. وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة... فهل وراء هذه الأخبار «شخصية متناسقة» مفهومة؟.. ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار.. وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة

قد تكون من أسباب التصديق، ولا تكون من أسباب الشك والانكار، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية، فما خرج من السواء فهو فضول

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها ان الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا، فإن خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستغرب وليس هو المألوف الذي يدعو الى الترجيح أو اليقين. وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها؟..

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان، فنحن نسأل: هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل؟.. فإن كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل في امكانها أو استحالتها، لأن التفسير الذي يقبله كل انسان يغني عن التفسير الذي يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة

أما رأينا نحن في امكان المعجزات فهو رأينا في امكان جميع الأسباب. فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها، وليس من العقل أن يقال ان هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في ايجاد الأشياء، وأصح ما يقال فيها قول الغزالي رحمه الله، إن الأسباب والمسببات تحدث معا، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق في الأوقات، وإلاّ لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم

فإذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط ان يتعجل بانكار المعجزات والجزم وباستحالتها..

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب: هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة؟.. وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا: هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير؟.. وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان..

ونحن لم نتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل لأن تفسير الحوادث

منساق لنا بغيرها ، فليس في الأناجيل ان معجزات الميلاد حملت أحدا على الإيمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة.. وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وان الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وان المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا-ولكنهم كانوا يزعمون انه من فعل الشيطان، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح انه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات

وبعد.. فمن الحق أن نقول ان معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها في عصر الميلاد: رجل ينشأ في بيت نجار في قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع في أطوائها دولة الرومان ولا ينقضي عليه من الزمن في انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة في ضم اقليم واحد ، قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام..

شــرّاح الأناجيل

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التي وقعت فيها الحوادث، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث

على ان حوادث السيرة فيها ما يظهر منه انه مقدمات وما يظهر منه انه نتائج لاحقة لتلك المقدمات، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تضاف الى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين: احداهما، حادثة السفر الى مصر وهو رضيع، والأخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره

روى الحادثة الأولى انجيل متى فقال: «ان ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلا: قم وخذ الصبي وأمه واهرب الى مصر.. لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف الى مصر، وبقي فيها الى وفاة هيرود» ثم قال: «وقتل هيرود جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونها»

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير انجيل متى، ولا يعرف الآن سبب وجود

الأسرة في بيت لحم- وهي في الناصرة- لأن الاحصاء الذي أشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة الى منبتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس..

أما الانجيل الذي توسع في وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذي روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس: « فلما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبي سمي يسوع.. » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى أورشليم ليقدموه للرب... ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهي القربان المقبول من الفقراء..

قال إنجيل لوقا: « وكان أبواه يذهبان كل سنة الى أورشليم في عيد الفصح، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى أورشليم كعادة العيد، وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان. وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه. فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه: يا بني. لماذا فعلت بنا هكذا؟.. فقال لها: «لماذا كنتما تطلبانني؟.. ألم تعلما حيث ينبغي أن أكون فيما لأبى ». فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما.. وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس »..

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك الى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الأردن ليعتمد منه- كما ورد في انجيل متى- فمنعه يوحنا قائلا: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي اليَّ؟.. فأجابه يسوع نسمح الآن، لأنه هكذا يجمل بنا أن نستوفي كل بر. فسمه له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء.. واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه، وصوتا من السماوات بقول: هذا هو ابني الحبيب »..

وفي انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة- وهو انجيل العبريين- رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها ان أمه وأخوته قالوا له ان

يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا.. فقال لهم: «أي خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدي!.. اللهم الا أن يكون هذا القول الذي قلت»

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها، ولكنه بالقياس الى نظام التربية في ذلك العصر يبدأ في مكتب ملحق بالبيعة[1] في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها «حزان» أو «خزان» بمعنى الخازن والحارس، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها في الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر، وقد سمى الطفل يسوع أو «يهوشع» على هذا الأمل، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى «يهوا» أو نجدة «يهوا» أو خلاص «يهوا» فتربى الطفل تربية دينية خالصة، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة الى بيت لحم عند مولده، لأنها تنتظر المعجزة هناك، حيث ورد في أسفار النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود، لأنها موطن داود..

ولا يبعد أن الصبي المبارك، وكان في الثانية عشرة من عمره، قد وعى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى واستمع الى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسى أهله وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار

ويغلب على الظن انه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وان يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه في الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد، وهي بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد..

ومن البديهي ان كلمات يوحنا مع الفتى ابن الثلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها في نفسه الواعية، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما

---

(١) البيعة: بكسر الباء معبد اليهود، أو كنيسة النصارى.

ترجوه ويرجى منها من البشائر والنذر التي ترددت يومئذ في كل مكان، وعلى كل لسان

وخلوة البرية هي احدى نتائج تلك التحية النبوية، وهي خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التي عالجها كل نبي قبل أن يصدع بما أمر به[1]، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول: «انه عليه السلام بعد أن صام في البرية أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم اليه المجرب وقال له: ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا. فأجابه: مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله. ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له: ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من علٍ، لأنك موعود أن يوصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر. قال يسوع: ومكتوب أيضا: لا تجرب الرب الهك. ثم أخذه ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها ان سجدت لي.. قال يسوع: أغرب عني أيها الشيطان، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد»

قال انجيل متى بعد ذلك: ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن في كفر ناحوم، وابتدأ رسالته داعيا الى التوبة، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا وأملا، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة، وردَّته كلمات النبي النذير الى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كتب القدامى من البشائر والمواعيد: ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذي ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء في

(١) يصدع بما أمر به: صدع بالامر تكلم به جهارا.

طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى[1] لمن يطلبه كحجارة الطريق؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة؟.. ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان؟.. كل تجربة من هذه التجارب كانت هي التجربة التي تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية، واقفا على قمة الإيمان وشفا الهاوية في لحظة واحدة، تغريه من هنا رسالة وسلطان ومساومة على البراهين والآيات، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحي نبوي بالرسالة المسيحية؟..

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت في نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل، وان فترة الخلوة في البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للإقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الإبهام والإحجام.

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة في البرية، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعي العمل في ضميره السليم

انه اذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده، وبخاصة حين يبدو للنفس ان الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان الذي لا يأتي الا بضمان من البرهان..

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه

(١) لقى: بفتحتين: الشيء المطروح الملقى لهوانه.

الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية، وليفعل الله ما يشاء، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة، ولم يقل لأحد انها رسالة مسيح، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه

واصطبغت رسالتهَ الأولى في الجليل بصبغة مميزة وهي صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضي في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بنى اسرائيل، فهذه الخطوة التالية هي الدعوة الانسانية العامة وهي استخارة للحوادث واستلهام للغيب في ميدان أوسع وأبقى، وعلى الصفة التي ثبتت له في طوية ضميره وهداه اليها وحي الله، ولم يبق الا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء..

أما الصفة التي ثبتت له عليه السلام في طوية ضميره فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى، فهو نور العالم وخبز الحياة، والكرمة الحقيقية، وهو ابن الله وابن الانسان

والأبوة الالهية قد وردت في مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله «وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات» (٦ تكوين)

وورد في كلام موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون: «دع ابني يخرج» ووردت بهذا المعنى في كتب أخرى كسفر التنبيه حيث جاء فيه: «أنتم أبناء الله» (تثنية ١٤) وأشير الى الشعب كله بانهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية)... ووردت كذلك غير مرة في المزامير حيث قيل: «قدموا للرب يا أبناء الله» (٢٩) و «من يشبه الرب بين أبناء الله» (٨٩)

وكذلك وردت في هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب: «أنتم أبناء الله الحي»..

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله «أبانا الذي في السماوات» وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ: «ان أباكم واحد هو الذي في السماوات» وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد، وكل ولادة للروح فهي بنوة لله

أما ابن الانسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية، وباللغة العبرية، وهي بالآرامية «بارناشا» من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان، وهي بالعبرية «ابن آدم» وتطلق في كلتا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء

وقد وردت تسعين مرة في سفر حزقيال حيث يخاطب النبي باسم ابن الانسان (٨)

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات* ثم ينبىء عن رسول يأتي في صورة انسان رآه النبي في رؤى الليل «على سحاب كابن انسان» جاء بسلطان لن يزول

أما كتب العهد الجديد فقد وردت في مواضع منها بمعنى «الانسان» ومنها قول السيد المسيح في انجيل متى «كل خطيئة وتجديف يُغفر للناس، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في العالم الآتي» (١٢)

وقد جاءت أحيانا مرادفة لضمير المتكلم «أنا» حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه، فجاء في لوقا ١٢: «كل من اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله» وجاء في متى ١٠: «كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السموات»

وورد في متى ١٦: «انه لما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبُّس سأل تلاميذه قائلا: من يقول الناس اني أنا ابن الانسان»

وورد في مرقس ٨: «ثم خرج يسوع وتلاميذه الى قرى قيصرية فيلبُّس وفي الطريق سأل تلاميذه قائلا: من يقول الناس اني أنا؟»

فهي في بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها في هذا

السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها في نبوءة دنيال حيث قال: « كما يجمع الزؤان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم، يرسل ابن الانسان ملائكتـه فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » متى (١٣)

وهي اشارة كاشارة دانيال الى يوم الدينونة، وصيغتها بالآرامية واحدة في الموضعين..

هذه هي الأسماء التي تسمى بها السيد المسيح في ابان دعوته الأولى أو عند نهايتها، وفي أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول: «لماذا تدعونني صالحا؟.. ليس أحد صالحا الا واحدا، وهو الله »

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه، فلما قال له بطرس انك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكـتمان.

وغني عن القول ان هذه الأسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها في ذلك الحين، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان ».

لو جرت الأمور في مجراها الذي استقامت عليه الدعوة في الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة في طريقها سنوات دون أن تشتبك في حرب صراح مع دولة الكهانة في بيت المقدس.

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية، ومنها أسرة السيد المسيح: أمه واخوته وذوو قرباه.

وكان عليه السلام يجاري أسرته في هذه العشائر التي لا ضير فيها، ولم يكن يضيِّق على الناس في المحافظة على المأثورات التي تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجْر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته في أفراحها القومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراب القربان، بل يأمر بسداد الفرضة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بني إسرائيل.

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه في إحدى السنوات منذ بشر برسالته في الجليل، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود إلى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة[1] الهيكل وذوو الشأن في العاصمة الدينية، ودون أن يشتبك الفريقان في نضال.

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة؟..

انه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات الماضية..

انهم يعدون الآن بالألوف في انحاء الجليل، وإذا قدرنا أن نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون.

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذي يحج معهم إلى المدينة؟.. ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء؟

هنا موقف من المواقف التي نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث..

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه التخفي والاستتار.

وماذا يقع من أثر التخفي والاستتار في نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية؟

أيؤمن أحد منهم ان رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم في الخفاء، وتستتر لسبب من الأسباب، فضلا عن السبب الذي يسبق إلى الأذهان لأول مرحلة، وهو الحذر والاتقاء!.

وجب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين

وأدل شيء على أن الموقف الأخير في الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح في أمثال هذه المواقف- موقف استخارة الحوادث- انه عليه

---

(١) سدنة الهيكل: حراسه وخدامه.

السلام سهر ليلة الوداع يصلي ويناجي ربه قائلا: «اعبر عني هذه الكأس يا أبتاه.. كما تريد أنت لا كما أريد»... ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشط وأما الجسد فضعيف».

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لا بد أن يواجهوه، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء، وصرف عن أذهانهم انها غزوة فتح تنجلي عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية،فليوطنوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون، بل لا ييأسوا إذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه، ولا يخامرهم الظن أنهم إذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع، فهذا الضعف مقدور يتبعه نصر قريب

وتروي الأناجيل انه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر أتان كما جاء في بعض النبوءات عن موكب المسيح الموعود، وانهم كانوا يحملون السعف[1] أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته، ويهتفون بهتاف النصر الذي يحفظه اليهود منذ الطفولة، ويتغنون به في المواكب والمحافل لذكرى داود، وذكرى مجده المستعاد إلى آخر الزمان.

ويفهم من وصايا السيد المسيح انه ظل في بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها، ففي احدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميذ: «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعلموا لأنهم يقولون ولا يفعلون»..

ولم تسمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه في حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله، فكل ما سُمع منه في بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذي يدعو اليه، وانه من غير هذا العالم، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش.

الا انه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الأشراك التي ترصد له في كل خطوة، وعرف من الأسئلة التي كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به

---

(١) السعف: ورق جريد النخل.

لإهلاكه.. إذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع إلى هدف واحد وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت «الكفر» ونقض الشريعة، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والاحراج تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء، ولا يبعد انه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة، لأن أحدهم وهو- نيقوديموس- كان يزوره ليلا، ولعله واحد من كثيرين.

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذلك العيد، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة يدوية، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم انهم في بيت الله، وانهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص.

وكانت هذه هي الواقعة الفاصلة على ما يظهر، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه، فامتلأت الصدور[1] الموغرة واتخذت من درء[2] الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل، وبدأ العمل.

الذي تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة

وهنا ينتهي دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة

فليس للتاريخ كلمة راسخة في خبر من الأخبار التي أعقبت حادثة الهيكل وحرّكت كهانه للبطش والنكاية..

ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يُهتدى اليه بغير دليل..

وفي حادثة المحاكمة يجري الخبر على انه حوكم بالليل وصدر الحكم في يوم واحد، ويجري نظام القضاء الموسوي على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر في قضايا الدم بعد جلسة واحدة في يوم واحد، ولا ينفذ الحكم في

(١) الصدور الموغرة: أوغر صدر فلان: أحماه من الغيظ.

(٢) درء: دفع.

هذه القضايا إلا إذا صدر بالاجماع.

وفي حادثة التنفيذ يجري الخبر على انه قد تمَّ على الرغم من اعلان الحاكم الروماني براءة المحكوم عليه، ويقول انجيل يوحنا أن تسليمه للتنفيذ كان في نحو الساعة السادسة، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه »

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند Husband في كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين، فتبين انه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين، والأخبار تجري على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وان تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر ابريل. أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويومَ الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين.

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وان القبور تفتحت وخرج منها القديسون يمشون بين الناس.

وروى نقلة الأخبار أن القبر فُتح في اليوم التالي فلم توجد فيه جثة، وان السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات قال لهم لما توهموا انه طيف: « جسوني وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام »... « وسألهم أعندكم هنا طعام؟.. فناولوه جزءا من سمك مشوي وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا.

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلي Cheyne والأستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجوتول Toll السويدي وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا إلى التفرقة في أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد.

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله في هذا الصدد، لأنه محل نظر كبير، وهو خبر الضريح الذي يوجد في طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هناك ضريح النبي أو ضريح عيسى، وروى تاريخ الأعظمي الذي دُوِّن قبل مائتي سنة ان الضريح لنبي اسمه « عوس آصاف » ويتناقل أهل

كشمير عن آبائهم انه قدم إلى هذه البلاد قبل ألفي سنة، وينقل المولوى محمد على في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربي يسمى «اكمال الدين» محفوظ من ألف سنة ان اسم «عوس آصاف» مذكور فيه وانه قال عنه انه رحالة ساح في بلاد كثيرة وان كتاب «برلام ديوشافاط» في صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صاحب «بشرى» وانهم يحفظون مثلا من أمثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزراع والبذور.

ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة: «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» وأورد تعليقا يقرب منه في تفسير قوله تعالى: «اني متوفيك ورافعك اليَّ» وغيرهما من الآيات القرآنية التي تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام..

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة، فان كتب لنا ان نوفق لزيادة شيء إلى هذه الذخيرة القدسية، فذلك حسبنا وكفى، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى اثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه.

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق انها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلهيه تحيط بكل من يهتدي من بني الانسان، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الاثرة العصبية وتداعي الهيكل الذي اعتصمت به وتجدَّدت فيه.. ثم قامت للضمير الانساني دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع، ولحكمة ما ألهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان.

في الختام : لو عاد المسيح

في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم - دستيفسكي - بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوفة عابرة ونزل بأشبيلية في ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة..

وانه ليمضي بين الشعب يضفي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش - المفتش الأعظم - يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق

ويأتي المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم: « إنني أعرفك ولا أجهلك، ولهذا حبستك، لماذا جئت إلى هنا؟.. لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات في سبيلنا؟.. »

ثم يقول له فيما يقول: « إنك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة. كلفتهم حرية الضمير، كلفتهم مؤنة التمييز، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم.. والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف، وأعدناها إلى الشرائع والشعائر، تعود إلينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الإختيار وحرية الضمير؟

« ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعاً لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض إليه الأمر في اعتقاده وعمله، فلماذا تسوم الإنسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء، وهو لا يعلم ما يشاء؟

« إنك منحتنا السلطان قديماً وليس لك أن تسترده، وليس في عزمنا أن

نتزل عنه، فدع هذا الإنسان لنا وارجع من حيث أتيت، وإلا أسلمناك لهذا الإنسان غداً وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك، ولترين غداً هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلاً علينا مبتهلاً لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين »

قال إيفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار:
« إن السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو إزورار، وتقدم إلى المفتش الأعظم - وهو شيخ فانٍ في التسعين - فلثم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار »

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها «الحكماء» من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية: حكمة الرسول الكريم

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسَّل إليه..

كلا.. إن الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شيء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نقمته على الرسول الكريم

وأقرب شيء أن يكون، لو عاد السيد المسيح إلى الأرض، أن ينكر الكثير مما يُعمل اليوم باسمه، وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعي عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت، وأن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه. وأن الوحي الحي في طوية الإنسان لا في طوايا الكتب والأوراق

أقرب شيء أن يكون أن ينعي على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة، وأن يجد إنسان اليوم كإنسان الأمس في شروره وعداوته، وفي نفاقه وشقاقه، وفي أعراضه عن اللباب وإقباله على القشور، وفي إستعلائه بالتقوى حين يتقي، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي، خمراً جديدة في زق قديم

ذلك أقرب شيء أن يكون..

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخاطر ذلك الخيال، أن يردد اللسان قول أبي العلاء:

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي إلى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون، وفيم يهلك الشهداء؟.. وفيم يأتي الأنبياء ويذهبون؟.. وفيم إختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون؟.. فيم كل هذا؟.. فيم جاءهم رسول بعد رسول؟.. وفيم توالى التابعون بعدهم بإحسان أو بغير إحسان

جاءوا وعادوا..

وإنصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال..

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الإنسان منذ كان، وتخلد معه أنى يكون

ليست حرية الضمير مطلباً محدود المسافة، يرحل إليه الإنسان، ثم يصل إليه ويقعد عنه، ويكف بعده عن كل عناء

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب، يتقدم فيه الإنسان شوطاً بعد شوط، أو طبقة فوق طبقة، ولا يفرغ من جهاده يوماً إلا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله إلا ليلقاه ويجاهده، ولن يلقاه في سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح في هذه المشكلة، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج[1] بالضمير وتبعثه إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات..

من ذا يقول أن عناء التعلم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في

(١) تعتلج: إعتلج القوم: إقتتلوا وتصارعوا. والأمواج التطمت. ومنه: إعتلج الهم في صدره.

الخامسة، ورآه يحمله وهو في العاشرة، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين، ثم رآه مدى الحياة لا يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء..

من ذا يقول أن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد عملهم بالجراثيم وبعد إفتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء

من ذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق إليها طويل، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا إنقطاع ولا إكتفاء؟..

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر من الأسرار في حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون؟

ليست العبرة أن الشر واقع، ولكن العبرة كيف ننظر إليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه

وإذا وقع إثنان في الشر، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه، كالذي وقع فيه وهو مضطر إليه نادم عليه، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والإضطرار

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى إليه.. فهم عاملون، وعملهم لازم، ونتيجته محققة، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الإحصاء..

وإذا قلنا يوماً أن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه وأن عمله غير مطلوب وغير معروف، كما يعمل الحيوان البهيم

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز، وبما تزيده من نصيب الإنسان في حرية الضمير أو حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة على العمل الكثير، ولكنها لن تغني الإنسان يوماً عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء إنهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن ديناً من الأديان لم يعمل عملاً، ولم يكن غير عبث من العبث، لأن الدنيا باق فيها الشر، باق فيها البغي، باق فيها الكفران..

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الألفية » الموعودة آخر الزمان، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات؟..

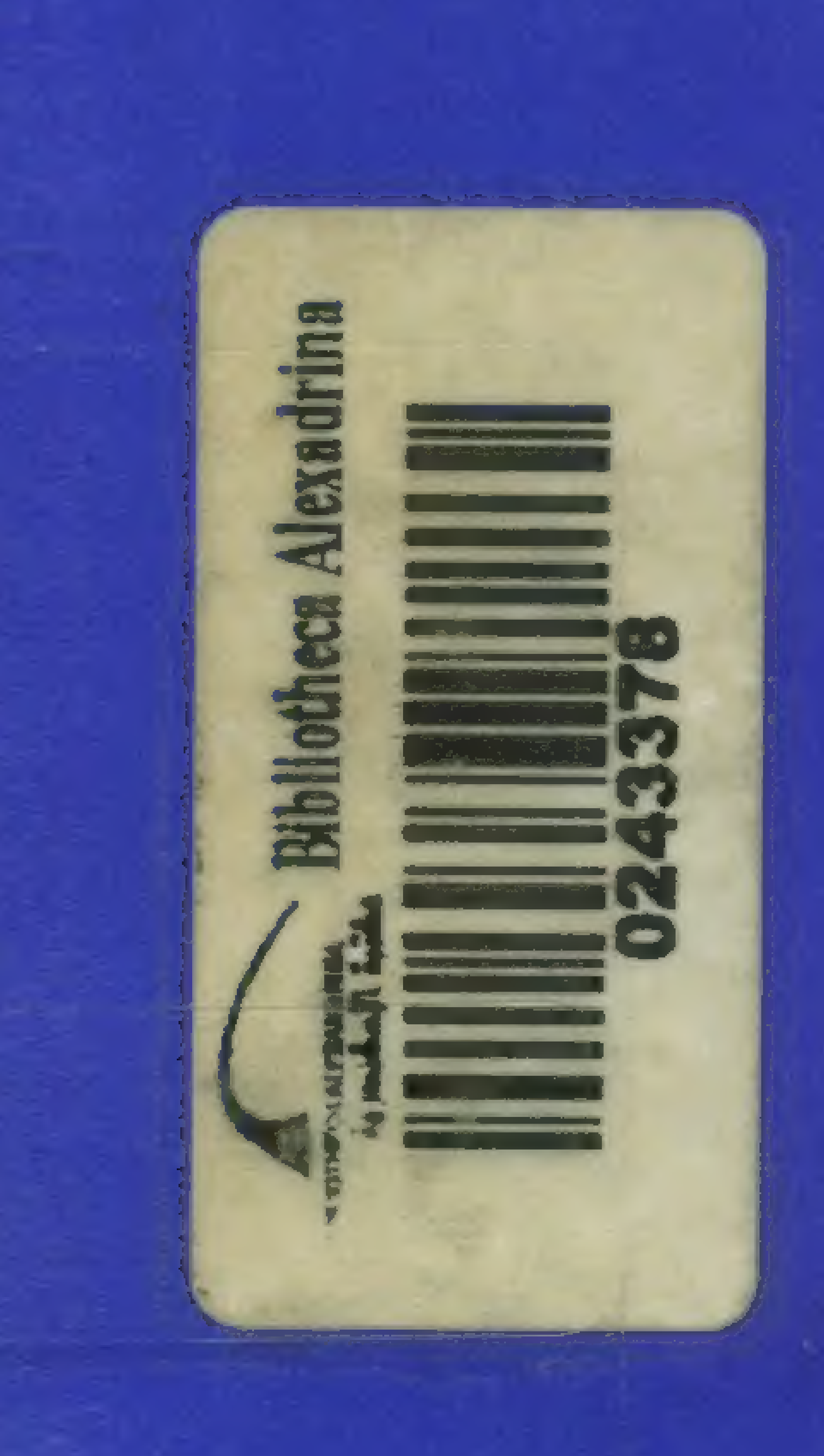
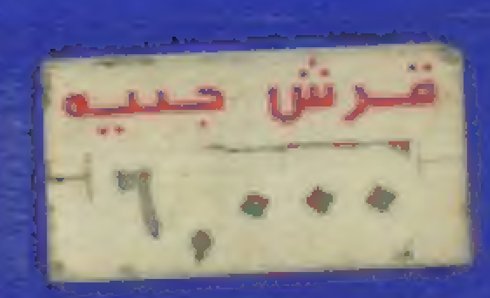
لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية ». وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير!

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيراً يصنعه، ويعيد صنعه، ولصنع كثيراً بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعاً كثيراً خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له، وهو الغاية وراء كل ختام وسيعلم الناس في العصر الحديث- إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم- أن عقيدة الإنسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتناً عليه، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه، إن احتاج إلى الإصلاح، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته. فالعقيدة مسألة الإنسان، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان..

فهـــرس

صفحة


Bibliotheca Alexandrina
02243378

قرش جنيه
٦,٠٠٠